الايمان الخالق



لم نفتأ نبشر بأن الحياة فكرة ، وفكرة فقط . . ونحن كأمة تريد الحياة ، لزام ان تكون لنا فكرة صحيحة ناجحة ، لتكون لنا الحياة الصحيحة الناجحة ، واوضاعك - ايها الشعب - التي تتحرك في مسافات قيودها ، فاسدة وتنبع من فكر فاسد ، فحطمها وحرر فكرك ، وابن الحياة من جديد .

ايها العربي : هذه نظرية في الحياة اذا تفهمتها جيداً ، لا يبقى بينك وبين النجاح الا ان تؤمن ، فان الايمان هو الشرط الاول والاخير للنوال والنجح ، ما دام الشعور بتبعة الايمان يدفع الانسان ابداً للعمل .

والحياة اذا كانت هي الفكرة فقط ، فلا جرم ان نجد المؤمن بفكرة يسعى لنشرها ويكافح من اجلها مهما كلفته ، لان فكرته هي التي تمده بالحياة او تجعل لها لوناً يجذبه اليها ويغريه بها . . فاذا خرجت الحياة عن قاعدة الفكرة التي يؤمن بها ، فاما ان يعيش غريباً متألماً ، واما ان يخلد مجاهداً ، وكذلك يفضل الاحرار دائماً الخلود في الجهاد .

واما الذي يعيش بدون فكرة ، فانه حيوان ساذج يحيا بالغريزة وحدها ، وبذلك ينحدر عن مستوى النوع ، حيث يتحرك في انبهام من الاحساس ، سوى الاحساس بواقع الغرائز العاملة ومساقطها .

والايمان يشعر بالمسؤولية « اي مسؤولية المبادىء » ذلك الشعور ، الذي يجعل المؤمن لا يقر له قرار ، الا اذا انتصر لها ومضى تحت شعورها بصفة غير شعورية .

فقولوا للذين يأخذون المتطرفين من الاحرار بحركاتهم ، انكم جامدو المشاعر لا تحسون بمسؤولية الايمان بالمبادىء ، ان الايمان الحقيقي تحجر في قلوبكم وضمائركم ، فتحجرت لذلك دماؤكم .

ان الايمان - ايها الجامدون - حرارة وقيذة ، تفرض الحركة الآلية المتحدية على صاحبها بارادة ودون ارادة . والا فانتم جاهلون بطبيعة النفس البشرية ، وجاهلون بآلية الحياة ذات الشرايين .

فيا هؤلاء : انتم هامدو الاعصاب ، وشرايينكم في انحلال ، فلا تلوموا المؤمنين الشاعرين .

أتذكر ان شاعراً « مجرباً » انخرط في حركة من حركات الجهاد ، الجهاد القومي والتحريري ، وكان صاحب الراية ، فاوصى بقوله : « اذا انا مت ، فاسلخوا جلدي الذي طالما صاحبني في كفاحي ، وشدوا منه طبلاً تضربون عليه كلما دعاكم داعي الجهاد ، ليصل ندائي الى اذن كل وطني ، حاملاً همسته النافذة :

انه نداء الذي قضى تحت العلم . . »

هؤلاء هم الشاعرون بالمبادىء ، المؤمنون ، الذين يحسون بمسؤولية الايمان وتبعة الواجب .

ان الايمان يقضي بان تظل المبادىء على الدوام ، عاملة بصفة حية ناصبة ، ومقياس حياة المبادىء ، الشعور بمسؤوليتها . .

وليس في اشياء النفس ، شيء اسمه « حبر على ورق » فكل ما تتسع له النفس وتعتقده ، تعمل به . وكل ما لا تعمل به ، معناه انها لم تعتقده .

ففي منطق النفس ، لا ايمان بدون عمل ، ولا عمل الا بايمان . . .

فيا ايها الذين تدعون الايمان الوطني ثم لا تعملون بوحيه ، انكم خلاء من الايمان ، انكم تلوكونه بالسنتكم فقط ثم لم تخالط بشاشته قلوبكم .

ان هبة من الايمان ، لامست من اللبناني العربي جوانحه ، جعلته يتحدى في الهرج من العواصف ، ويتنمر هادماً لا يبالي في المتناوح من الزعازع : ألا انه شعر بوجوده ، فهو لذلك اراد ، وهو لذلك فرض ارادته في مدى وجوده .

ان صبابة من الايمان مشت الى قلب اللبناني وعلى اعصابه ، جعلته يحمل معول الهدم ، فلا يخطىء الهدم . ويرفع شاقول البناء ، فلا يلتوي او يلتاث عليه البناء .

عبدالله العلايلي

بين الادب والسياسة

بقلم عبد اللطيف شرارة

اخذ العالم العربي يواجه في المرحلة الراهنة من حياته الاجتماعية مشكلة كبرى لم يكن لها وجود ملحوظ من قبل ، وهي علاقة الادب بالسياسة ، او اذا شئت ، علاقة السياسة بالادب ؛ فان اشكال الحكم الديموقراطي من ملكية دستورية الى جمهورية الى نظام شوري – وهي السائدة اليوم في اقطار العرب – كانت ولا تزال تفضي الى نشوء هذه المشكلة ، وانقسام المفكرين حولها الى فئتين : الاولى ترمي الى اقصاء الادب عن السياسة ، وتذهب الى حصر جهود الادباء في عالم الجمال الفني الخالص من شوائب الحزبيات والوظائف والمنافع . والثانية تحاول ما امكنتها المحاولة ان تجعل للادب اصبعاً في تسيير دفة الحكم ، وادارة البلاد ، وتوجيه الرأي العام عن طريق السلطة الزمنية .

وحجة الاولين فيما يذهبون اليه ان الاديب – ناثراً كان او شاعراً – رجل خيالي النزعة ، عاطفي الاتجاه ، يضطرب بين موقف وموقف ، فليس له من واقع الامر ضابط ، ولا عليه في غمرة الحوادث معول ، ولا يؤمن ان يسوق الامة الى الهاوية ، واذا كان يرجى منه احياناً ان يصعد بها الى معارج الرقي ، فان الرجاء الذي يبعثه ضئيل كل الضآلة في جانب المخاوف التي يثيرها . وحجة الاخرين ان الفكر وحده هو الذي يسيّر عجلات التاريخ ، ويجترح المعجزات ، ويشيد بناء المدنية الانسانية ، فاذا حكمنا على رجاله باعتزال الحياة العامة ، والانكماش عن شؤونها ، كان في ذلك معنى التخلف والرجعة والقضاء على اعز آمال البشرية وهي : الحرية .

فاذا تأملت هاتين الحجتين ، وتدبرت ما تنطويان عليه من واقع ، رأيت فيهما معاً جانب الصواب ، ولكنهما متناقضتان في النتيجة التي تخلص كل واحدة منهما اليها ، فلا يصح الاخذ بواحدة واهمال الاخرى ؛ واذن ، لا بد وان تكون هنالك « حقيقة » واحدة ، تشمل ما في هاتين من صواب ، وتستعلي عن التناقض والانقسام .. فما هي تلك الحقيقة ؟

— ١ —

الاكيد المحقق الذي ثبت لدى الاساطين من علماء النفس وجهابذة الاجتماع المحدثين ان الانسان وحدة روحية قائمة بذاتها ، فلا تمكن قسمته الى سياسة وادب وعلم واقتصاد ، فهو – في تكوينه – كمية اقتصادية ، بمقدار ما هو آية فنية وفكرة علمية وموقف سياسي وحادث اجتماعي ، ولا يجوز فصل واحدة من هذه الصفات عن اختها الا نظرياً ، وهو بحكم هذا التكوين ينطوي على جميع هذه الامكانيات ، فكأين من شاعر مثل ابي فراس يقود الجحافل ويخوض المعارك بين حمّى الطعن وحمّى الموت حتى لا يقصر بشيء عن خالد ابن الوليد الذي لم يؤثر عنه انه نظم قصيدة واحدة ... وكأين من ملك مثل الوليد بن يزيد الذي اسلست له الايام قيادها وحكّمته في الاموال والنفوس ثم انتبذ من ملكه الواسع ظل شجرة ينشد فيه الشعر ، او يغازل الغيد ، او يتأمل مفاتن الطبيعة في نجوة من تنافس القواد ، ومصالح العباد ، وحاجات البلاد ، فالشاعر لا تمنعه شاعريته ان يكون ملكاً او قائداً او زعيماً حين يكون في قرارة ذاته ، وفي حقيقة نفسه ملكاً او قائداً او زعيماً ، كما وان الملك لا يصرفه موقفه الاجتماعي بالضرورة ، عن اتجاهه الادبي او الفني . بل كثيراً ما يلبي نداء « فنيته » ويطرح العرش والتاج والصولجان ارضاً ليتفرغ منها الى التهاويل والتصاوير والعواطف ...

ولكن لهذه الامكانيات المكدسة في نفس الانسان قانوناً صارماً لا يختلف عن اي قانون طبيعي في دقته وصرامته ، اذ ليس في متناول انسان ان يحقق جميع امكانياته تحقيقاً متكافئاً على درجة مثلى ، اي انه لا يتاح لاحد ، بتعبير آخر ، ان يصير ابرع سائس ، واشعر شاعر ، واعلم عالم ، وافقه قانوني في آن واحد ، فلا بد وان ينصرف الى ناحية ، يمكنه انصرافه اليها من التفوق فيها . وذاك هو مبدأ « التخصص » الذي نادى به افلاطون منذ القرن الرابع قبل الميلاد .

والى جانب التخصص ، تقوم قضية توازيه في الاثر والتأثير ، وهي « الهوى » الاصيل . فقد يخطىء المرء احياناً في هواه – وهذا ما يجري كل يوم في بلادنا – فيعشق السياسة مثلاً وهو لو عشق التمثيل المسرحي لكان اجدى عليه وعلى الامة ، او يعشق الصحافة وهو لو عشق التجارة او الحدادة لربح وما خسر ، فاذا اتسقت الامكانية مع الهوى الصحيح ، وتعاونا على عمل واحد ، جاء هذا

العمل وعليه طابع العبقرية.

غير ان هنالك جواً روحياً ، هو من مبتكرات الروح العصرية ، او هو نتيجة للتطور الانساني الذي انتهى اليه القرن العشرون ، يجمع بين كافة الاهواء والامكانيات جمعاً دقيقاً غريباً يشبه المعجزة في مـا يصدر عنه ويظهر به ! وذلك الجو لا يكون الا في نفس « الاديب الحقيقي » و « السائس الحقيقي » . ثم لا يتمثل الا على مسرح الحياة العصرية ، في رجل عصري . فهل انت رجل عصري ؟

— ٢ —

تلك مسألة تحتـاج الى نقاش طويل يقوم به المرء مع نفسه قبل ان يجيب عليها ، وليست « العصرية » صفة هينة يمكن ان نسقطها من حساب تفكيرنا بحيث لا نبـالي سواء احرزناها ام لم نحرزها !! كما وان التهوين من شأنها – حين نحس انها تنقصنا – لا يعفينا من الجهد في تحصيلها ، فانت الان بين امرين لا ثالث لهما: اما ان تكون عصرياً ، اي تشارك العالم الراهن في حياته ، وتعمل على تقدم الانسانية جمعاء ، واما ان لا تكون عصرياً ، اي تعيش اسما في القرن العشرين ، ومسمى في القرون الوسطى ، او في عهد حمورابي ، او فيما وراء الطوفان . وحينئذ تكون شخصيتك موزعة بين اسمها ومسماها ، ومن هذه الثغرة الهـائلة ، تنفذ الكوارث والهموم والآفات الى حياتك تمحو اشراقها ، وتحدّ انطلاقها .

ولن تخف وطأة المسألة حين يكون الجواب بالايجاب فقـد تكون أمهر اللاعبين بالتنس ، وارشق الراقصين في المراقص ، وآنق اللابسين أحدث الازياء ، واولع المولعين بالتزلج على الثلج ، وأقدر محدث للنساء ، واعرف النظارة بكواكب السينما ، وادق الباحثين في السيكولوجيا ، ثم لا يصح ان تعتبر بعـد هذا كله رجلاً عصرياً !!

ذلك لان هذه المظاهر الشيقة المونقـة لا تخرج عن كونها مظاهر يشتمل عليها عصرنا فيما يشتمل من حركة وقوة وبراعـة واندفاع ، فهي تعبيـر خارجيّ عن معان انفقت الانسانية عمرها وهي تسعى الى تحقيقها ، ولم توفق بعدُ لادائها على اكمل واطهر وأصفى ما عسى ان يكون الاداء ، وجمـلة تلك المعاني الفاضلة تؤلف ما نسميه « الروح العصري » .

ولقد كان لكل عصر روح ، فكانت القرون الوسطى حفية بالتفكير الديني ، والخلق الديني والعمل الديني ، وكانت العلمانية هي السائدة في القرن التاسع عشر ، فلم يكن انسان ذلك القرن يتطلع الى الحياة الا من زاوية العلم ، ولا يرجو السعادة الا على يد العلم ، ولا يهتم الا بالمذاهب والاكتشافات والاختراعات العلمية ، ثم ينتبه بين فترة وفترة الى الفن فيوليه الرعاية والعناية .

اما روح هذا العصر . فقد بلغت من التعقيد والشمول درجة يصعب وصفها ، فهي اشـبه ما يكون بالسينما – وهي احدى تعابيره الهامة – التي تحفل بالشعر والموسيقى والتصوير والافكار والعواطف والاحلام والاخيلة دفعة واحدة ، ومن وراء هـذه الدفعة الروحية المتشخصة في جماع الفنون كلها ، علم ينظم ، وفكر يهندس الاجواء . .

واختراع السينما ، في طوره الراهن – كالاقبال عليها من جمهور المعاصرين – ان دلّ على شيء ، فانما يدل على هذا الظمأ للجمال ، وللمغامرة ، والاندفاع في سبيل الجمال والمغـامرة . فاذا أعدنا تركيب صور الحياة العصرية بعد هذا التحليل ، وجدنا ان العلم في هذا العصر وسيلة للحياة ، والحياة نفسها وسيلة المغامرة ، والمغامرة وسيلة للاستمتاع بمعاني الجمال ، والجمال حافز على الفضول ، اي على الدرس والبحث فهو يخلص الى العلم ، وهكذا ننتهي حيث بدأنا في دائرة متحركة ليس لها طرف ، ولا لحركتها توقف .

لا ادري ان كنتُ واضحاً ، بيـد ان المهم هو اعتبار الحياة وسيلة – لا غاية – في وجهة النظر العصرية ، فان الذين ما برحوا ينفقون ايامهم وتفكيرهم في تحصيل مقومات الحيـاة من غذاء وكساء ومسكن ورغـبات جنسية ويجهدون في تحقيق السيطرة والتباهي بها ، دون ان يكون لهم مثل اعلى روحي ، فهؤلاء هم المتخلفون او « الرجميون » ، ورجميتهم تتشخص في هـذا الطراز من التفكير المنحصر في الحياة الحيوانية .

— ٣ —

. . . والحيـاة كانت ولا تزال ، مادة الادب ، كما وانها مادة السياسة ، فلا بد وأن يصطبغ الادب الحي بصبغة الحياة التي نشأ فيها ، وعبر عنها ، ووصف اكوانها ، وكـذلك السياسة الصحيحة ، فانهـا تستقي اتجاهها وفعاليتها من الاجواء الاجتماعية العامة ، والنظريات الفلسفية الشاملة التي تهيمن على العصر .

ومذ كانت الحرية – وهي من مستلزمات المغامرة – ابرز ما في عصرنا من ظواهر سواء تمثلت املاً او واقعاً ، فقد اتجه السـاسة الحقيقيون في جميع اقطار الارض ، نحو تحقيق الحرية ، وبنـاء الحياة الفردية والاجتماعية على قاعدتها ، واقرار العلاقات الانسانية في حيزها . والذين حادوا عن هذا النهج السياسي عثروا ، وعثرت معهم اقوامهم .

عازفة

ليس «البيانو» الذي باتت تكهربه ... يداك اطوع من قلبي وافكاري
لمسته فتمشي السحر بي فكما ... تهتز اوتاره تهتز اوتاري
اصابع العاج هذي تلعبين بهـا ... ام تلعبين بأسماع وابصـار
ازكى السلام على يوم ولدت به ... يا بنت فردي وبتهوفن وموزار
لا شك ذلك يوم ما سمت به ... حول السرير سوى تغريد اطيار
فجاء قلبك خفاقاً بأجنحة ... حفيفهـا بين الحان واشعار
بنت الكرام الالى ما زرت دارهم ... الا مشوقاً وما شوقي الى الدار
جددت للشعر ناراً في الفؤاد وكم ... قد خاب غيرك في شعري وفي ناري
اثرت فيّ من الاشجان كامنها ... فبت اسهر ليلي حول تذكار
كزهرة القفر في الظلماء ليس لها ... من مؤنس غير نور الكوكب الساري

نقولا فياض

اما الادباء، فقد توصلوا في أغلب المراكز المتمدينة الى تغذية تلك الاجواء الحرة، وبثها في النفوس، واستغلالهـا لانشاء عالم افضل، فأطلقوا لاقلامهم العنـان في ارتياد جميع الاكوان، وكشف خوافيها، وتصوير ما اتضح منها وما غمض.

نخلص من ذلك الى ان هناك سياسة زائفة وسياسة صحيحة، وان هناك ادباً زائفاً وادباً صحيحاً. فالسياسة الزائفة هي التي تحد من تعاون النوع البشري، وتفصل بين اجزائه فصلاً محكماً لتنفذ من هذه الفواصل الى غايات ومآرب تغلب عليها صفة الحيوانية، فلذا نجدها تستخدم النفاق في تسيير علاقاتها مع الغير، ولا تتورع عن استخدام الاستبداد حين يعوزها المنطق وتواتيها القوة. والسياسة الصحيحة هي التي تتوفر فيها عناصر الروح العصري، فتنتهج المثل العصرية القوية، وتعمل على نشر العلم، وتحوط الحياة الاجتماعية بسياج من التربية القومية — الانسانية تجعل الفرد مستعداً للمغامرة، قادراً على المغامرة، مجهزاً بكل ما يحتاج اليه ليقوم بتجربة شخصية تعود فائدتها على المجموع في اي حقل شاء.

اما الادب الزائف، فهو ذلك النتاج الفكري الذي لا ينبع من روح جديدة غنية مفعمة بأطايب المعـارف وحقائق الفنون، ولا يستهدف اقامة حياة جديدة، ولا يرجو بناء عالم من المغامرات جديد، ثم يقر القوانين على قصورها، والناس على خمولهم الروحي، لينعم من ذلك بأسباب الرغـد والنشوة والانتفاخ، او ليلهو بما يأخذه على الحياة من فوضى وتفسخ، بينما الادب الصحيح ينبض ابداً ودائماً بالثورة الواعية المجاهدة التي تهز الناس الى اعادة النظر في كياناتهم النفسية، واوضاعهم الاجتماعية، وحالاتهم العامة!!

— ٤ —

هنا نجد الادب معنى من معاني السياسة، ونجد السياسة معنى آخر من معاني الادب، فلا يمكن الفصل بينهما لانهما ينبعـان من افق واحد هو «الروح العصرية»، وينتهيان الى غاية واحدة هي «اقامة الجمال» في مناحي الحياة.

والاديب الحقيقي سياسي رغماً عنه، كما وان السائس الحقيقي اديب بالضرورة، وليس اسخف ولا اغبى ولا أعرق في الحماقة من اولئك الساسة الذين يريدون ان يحصروا الادباء والطلاب ورجال الفكر في نطاق من الابحاث والنظريات والمعلومات، ليستأثروا بالسياسة العملية كما يقولون، كأن التجربة لم تنفتح في العالم الا لهم ولأمثالهم!!!

فلندع باب المغامرة مفتوحاً، وليغامر من يشاء في الادب او في السياسة ....

صيدا — عبد اللطيف شراره

الفن والحرب

بقلم صلاح الدين المنجد

●

●

تؤثر الحرب في الفن تأثيراً ذا خطر كبير ، فهي تنعشه فيزهر بها ، لانها ذات قيمة فنية في نفسها ، ولقد حاول « بريفو بارادول » في كتابه « فرنسة الجديدة » أن يصور الحرب للفرنسيين غداة حرب السبعين ، بأنها ذات جمال ، معرضاً عما تجره من حيث الاخلاق . وقد لاحظ ان نزاعاً يقوم على ضربات الاكف ، عمل فيه شذوذ ، ولكن تمثل الاخصام ، وقد شهروا السيوف ، فتمثلوا الموت يرفرف ، وتصوروا العالم الاخر الذي سيلج احدهم بابه من غير رجعة ، فان كل اولئك يكسب المشهد العظمة والجلال وهذا الشعور يزداد عندما تكون الحرب بين امتين لا فردين ، ففيها يظهر الجمال وتبدو القوة ، وتتجلى العظمة .

وقد ذهب روسكان النقادة الفني ، والعالم الاجتماعي الانجليزي ، في كتابه اكليل الزيتون الوحشي الى ان الحروب اساس كل فن عظيم ، ولكنه يستدرك امراً ، فيقول « وليست الحرب ذات الغاية التجارية او الصناعية التي يثيرها المحدثون من حين الى حين هي التي نعني ، وانما الحرب ذات الغرض النبيل ، التي ولدت من غرائز مهذبة ، والتي (يبررها) رفعة اغراض المتحاربين »

على ان هذه الحرب التي يعنيها روسكان هي اقرب الى الخيال ، منها الى الواقع ، حتى ليقول الدكتور لالو : ان روسكان كان يفكر ساعة كتب هذه الكلمات في الاساطير القديمة التي نسجت حول بعض الحروب القديمة ذات الغرض النبيل ، وليس في حروب هذي الايام .

واذا نحن رفعنا كل قيد ، استطعنا ان نصل الى ما كتبه سوريل في كتابه « الفن ابان الحرب وهو ان الفن يظهر دائماً ، ذا علاقة ضيقة بمظاهر القوة . » كتهور الامراء واساطير الابطال ، والمنازعات المختلفات .

ويعتقد الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر انه يوجد تناسب طبيعي بين الانموذجات المتوحشة في الفن ، والانموذجات المتوحشة في الناس . ولقد راى في اواخر ايامه ازدياد التوسع البريطاني بعد حرب البوير ، مصحوبا برجوع ظاهر الى اشكال دنيا في الفن ، كتزيينات الكنائس الجوف والبحث عن الغريب ، وعما لا ينسجم مع الطبيعة وعن القبح ، في مجالات الفن .

على ان هذه الآراء العامة تعد بنجوة من تأثير اي مدرسة من مدارس الفن الحالية ولكنها تعد من برامج مدرسة الفن في المستقبل وقد اشاد زعيم هذه المدرسة «مارينيتي » بالفضائل الفنية التي تسببها القوة ، ذاهباً الى ان ظفر الفن وسموه ، وبلوغه الذروة العليا ورفيفه ، يكون بتخريب الآثار التي خلفتها لنا الاجيال الخوالي . فلا متاحف ، ولا مكاتب ، ولا ابنية قديمة ، تغل الخيال الحي المبدع ، وتربطه بماض قديم ميت ، ومعنى ميت انه جديب . وليس كالحرب من يقوم بهذا العمل الطيب ، «وعندئذ سنبني في رينمس كنيسة اجمل من كنيستها» ، كما قالوا ، وسيشيدون ابنية اعظم اثراً واروع منظراً ، تحيط بها عظمة الفن الحديث ولا يشوبها شيء من الماضي المجدب البعيد .

ولكن الحرب ، كما يرى هؤلاء ، تحمل بنفسها محاسن اقل ضرراً . لان الشدة والقوة ، بفورانها ، الذي هو فوران الحياة المكتظة ، ليست بعيدة عن ان تتحد بالجمال كله . فجميع اعمال الحرب ، من النهب والسلب ، والاحراق والاغراق ، الى دك الحصون ونسف الجسور ، وتغريق

التنويم المغناطيسي من مسمر الى شاركو

بقلم الدكتور نقولا فياض

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

☆

قد قلت فيما سبق ان من اغرب الطُرف حكاية الانسان في عراكه الطويل مع هذا المجهول الذي يحيط به ومحاولته استكشاف اسرار الكون وفض مغالقه ليروي ما به من ظمأ الى الروح وظمأ الى المادة ويخفف ثقل ما يعانيه من جهل والم ومرض وفناء .

اتى عليه حين من الدهر وهو يتخبط في مجاهل الشعوذة والسحر والكيمياء ثم تفتقت فكرته عن وجود سائل روحاني يربط الارض بالسماء وكان « براسلس » السويسراني اول من افتتح هذا الدور ثم تلاه هلمون البلجيكي وفلود الانكليزي فاذا الكون في نظرهم مجموعة قوى حيوية والانسان جزء من هذا الكون يمر فيه السائل الكوكبي الذي يصرف امور الكائنات فاذا استطاع احد النـاس التقاط هذا السائل وادخاله الى الجسم المريض فقد ظفر بالدواء العجيب الصادر عن القوى الحيوية التي تغذيها الافلاك . وكان لا بد من رجل له الجرأة الكافية ليقول للناس انا من الذين يستطيعون التقاط هـذا السائل الشافي ، ومن يدي ولساني تنبعث قوى فلكيـة تخفف الاوجاع وتشفي من الامراض .

هذا الرجل هو مسمر ، لاهوتي قديم ذو المام بالطب والفلك والموسيقى . بدأ حياته العملية في فينا فتوصل الى شفاء احد اعيان المجر من الم قديم في العنق واعادة البصر الى وصيفة الامبراطورة ماري تريز (لان الهستريا ايضاً تذهب بالبصر احياناً) حتى اذا عزم على الشخوص الى باريس كانت شهرته قد سبقته اليها .

كان مسمر يستعمل بادىء ذي بدء حجر المغناطيس غير ان

الدراعات ، وائتلاف الدبابات ، كل اولئك يحتوي غاية الجمال الانساني . .

فكأن هؤلاء الفنانين المخربين ، يريدون الدمار والخراب ليروا فيهما الجمال ، وتلك نغمة من نغمات نيتشه في مذهبه عن القوة .

ويتكلم الروائي الكبير بول آدام في مقال له عن «الادب والحرب» ، على اثر الحرب في الادب ، فيقول : ان كل حرب ، من اشد الحروب هولاً ، قد خطت بالنار وبالحديد ، حدوداً ، تقسم بها تاريخ الحضارة الغربية الى عهود متباينات . ولقد كانت الافكار ، غداة هذه الحروب تتبدل ، وكانت العادات والعرف تتغير ، اما الادب ، بالنسبة لعلاقته بالحرب ، فكان يظهر تارة سبباً ، وتارة نتيجة «فباقاصيص البحارين والملاحين ، وباغنيات الحرب التي كان ينشدها الشعراء الطوافون قد اثار الادب حروباً صليبية ثانية» على ان هذا الادب كان نتيجة تلك الحروب ، وافاد الغرب منها افادة كبرى ، «فالملاحظة وتذوق الطبيعي ، مهما ممج وقبح ، والبحث عن الحقيقة مهما هزلت ، هي الاثاوي التي جناها الناس من حروب الشرق . .

*

فانت ترى ان الحرب قد تغذي الفن والادب ، بروائع خالدات ولكن السلام يغذي الفن بجماله وهدوئه ، فتظهر روائع اعظم قيمة ، وامتع اثراً ، وابقى ذكراً ، لان الفن تأمل ، وحلم وعبادة ؛ هو حلم في يقظة العقل وهدوئه ، فالفنان يحلم ، ولكنه يدرك ما يتراءى له ، اي يحلم وعيناه مفتوحتان ، فحلم الفنان اغفاءة في يقظة الضمير ، فلا هو حلم كما نفهم من كلمة حلم ، ولا هو يقظة خالصة للعقل ، فاذا كان الفن كذلك ، فحياته تقتضي المناعم واللذائذ ، والشاذ قليل ، وهذه لا تكون الا في السلم .

دمشق — صلاح الدين المنجد

تكاثر المرضى عليه وازدحام القصاد في بابه دفعاه الى البحث عن طريقة تمكنه من معالجة العدد الكبير في الوقت القصير فاتخذ قضيباً يحمله قوى مغناطيسية ويعالج به من ٣٠ الى ١٠٠ مريض في آن واحد فكان المرضى يشعرون بالسائل الشافي ينتقل من القضيب الى اجسادهم فيخفف من الآمهم . ثم وجد ان منبع القوى الشافية ليس في القضيب الذي يمسكه بيده بل في اليد ذاتها فصار يكتفي بلمس المريض ، واضعاً يده بلطف ، ماراً بهـا من الكتف الى الذراع ، راسماً دائرة حول مكان الوجع ليفصله عن سائر الجسم وهكذا احيا عادة الاقدمين من فسبازيان امبراطور روما الى ملوك القرون المتوسطة ولكنه خلع عليها اسماً علمياً وهو المغناطيسية الحيوانية . ثم رأى ان اللمس غير ضروري وحسبه ان يريد لينقل السائل الشافي منه الى المريض فيقول كما كانوا يقولون في عصور السحر والشعوذة « الى الوراء ايها الالم » ويزول الالم .

وكان يعتقد كالذين تقـدموه ان النوم المجلوب يشفي من الالم وانه في الامكان جلب النوم بواسطة السائـل الشافي . فكان يدخل قواه الفلكية الى جسم المريض حتى تنتابه الرعشة والتشنج وكان المرضى يصطفون حول القضيب الممغنط ، او يضطجعون ليتلقوا لمس يده ، او يصغون الى كلماته السحرية الى ان يصيبهم التشنج فيناموا ويستيقظوا بعد قليل وقد عوفوا .

وبلغت شهرة مسمر الاوج ولا سيا بين طبقة النبلاء حتى ان ماري انطوانت والبرنس ده كوندي وغيرهما كانوا اسعد الناس عندما يفوزون بمقابلته . وكان لافايت من اعظم المعجبين به حتى انـه لدى وصوله الى اميركا صاح بواشنطن ، وهو لمـا يزل على ظهر الباخرة انه جاء يحمل الى الاميركان هـدية غير السلاح واثمن من السلاح .

وكان عامة الشعب يتوافدون على منزله في حي مونمارتر منذ الفجر وينتظرون خروجه ليستفيدوا ولو بلمس اطراف ثوبه

ورأى مسمر ان وقتـه يضيق عن ارضاء منتجعيه العديدين وان القضيب ولمس اليد والكلام دون الغاية من ذلك فصنع علبة من خشب فيها صفان من القوارير المملوءة بالسائل المغناطيسي ، وفي وسطها قضيب من الفولاذ له اعواد متحركة يمكن توجيه اطرافها نحو المواضع المريضة من الجسم ، فكـان المرضى يصطفون حول هذه العلبـة في صمت وخشوع ويمتصون القوى المغناطيسية المنبعثة منها على تلك الاعواد . وذاعت هذه الطريقة وعظم الاقبال عليها حتى كان النبلاء والاغنياء يحفظون مواضعهم من حولها قبل ميعادهم بايام ، وكانوا في ولائمهم يدعون ضيوفهم الى حضور جلسة حول هذه العلبة بدلا من الذهاب بهم الى الاوبرا

ثم وجد مسمر ان العلبة غير كافية لان عدد قاصديه كان يزداد ازدياداً هائلاً فترك بيته وخرج الى الفضاء . وما تقدمه له الطبيعة من شتى الاهداف وصار يمغنط احواض المياه والعشب والاشجار والحدائق العمومية والغابات فكنت ترى الجماهير يغطسون في مياه البرك او يتمددون على العشب او يتسلقون الشجر ويرتجحون في الاغصان منتظرين ساعة الشفاء

وكلما تفنن مسمر في اختراع طريقة تسهل له استعمال علاجه الواسع وجد نفسه مقصراً حتى انتهى به الامر الى استعمال المرآة ينقل اليها السائل الشافي فكان الناس يرون من امـام المرائي تعكس لهم وجوههم الكالحة وتجود عليهم بالعافية

من القضيب الى اليد الى الكلام الى العلبـة الشهيرة ، الى الاحواض والعشب والاشجار ، الى المرائي كل هذا لم يسهل لمسمر مهمته ازاء الشهرة البعيدة واقبال الناس عليه اقبالا يفوق التصور فتفتقت له الحيلة عن وسيلة جديدة فقال ان الاصوات الخارجة من الات الموسيقى المغنطة تكفي لازالة الالم فصارت الحفلات الموسيقية تقام في كل ناحيـة من باريس يشهدها الكبير والصغير والقاصي والداني .

وبديهي بعد هذا كله ان يصبح مسمر وافر الغنى ومما زاد في ثروته ان طبقة الاغنياء كانت تأنف من الاختلاط بسائر الشعب فكان يبيعها علبه باثمان باهظة نحو المئة الصفراء لكل علبة حتى ان مدام ده باري المعجبة بـه كل الاعجاب كانت تشكو من طمعه وغلاء علاجه .

وهكذا كان في وسع مسمر ان يكون في كل مكان كما في قصص الجان . ولم يكتف بما وصل اليه بـل اراد ان يحفظ السلطة لنفسه فادعى انه لا ندحة عن تجديد المغناطيسية حيناً بعد حين في العلب والاحواض والاشجار وغير ذلك مما اقلق بال مريديه واشياعه فراحوا يتساءلون ماذا يحل بالناس عندما يقبض الله مسمر اليه ? وتسرب هذا القلق الى الحكومة نفسها فسعت الى اقناعه بتلقين سره الى تلاميذه كي لا تحرم الذرية من منافعه وعرضت عليه مقابل ذلك اربعين الفاً من الذهب كل عام .

ولكن ما هي الاربعون الف دينار ازاء ما كان يرجه هذا الساحر ? ان غاية مناه بعدما أثرى ان يكون له مقام علمي وشهرة خالدة فاشترط على الحكومة ان يعترف به المجمع العلمي وهذا ما

عز عليه الظفر به حتى اضطر لويس السادس عشر الى التـدخل والتوسط . فطلب من المجمع امتحان طريقة مسمر علما وعملاً .

وعليه اجتمع اعضاء المجمع وبينهم كليوتين مخترع المقصلة التي أطاحت فيما بعد برأس لويس السادس عشر ، ولافوازيه اشهر كيماوي العصر الذي كتب له ان يلقي حتفه بها كذلك وبنيامين فرنكلين مخترع الشاري او قضيب الصاعقة فاسفرت بحوثهم عن ان المسمرية طريقة غير علمية ولا يمكن الاعتراف بها .

غضب مسمر عند ذلك غضباً شديداً وهدد بمغادرة باريس فهلع لهذا النبأ قلب ماري انطوانت وراحت تحاول بشتى الوسائل ارضاءه على غير طائل غير ان بعضاً من اشياعه تطوع للاكتتاب بمبلغ عظيم لانشاء مجمع مسمري يقف في وجه المجمع العلمي

جرى كل هذا والثورة الفرنسية على الابواب فجاء عهد الارهاب واقام حداً للجدل وذهب الكثير من المكبرين لمسمر الى المشنقة واضطر هو الى الفرار باسرع ما يمكن فقصد الى فينا مطلع نجمه ولكن حكومة الامبراطور اعتقلته خوفاً من ان يكون رسول الثورة ولم يطلق سراحه الا بعـد شهرين فتولاه اليأس وعاد الى مسقط رأسه في مرسبورغ . وكانت الحوادث تتعـاقب بسرعة هائلة لم تترك للناس ان يفكروا باحد حتى ولو كان مسمر الساحر

وهكذا هبط هذا الرجل العجيب من ذروة مجده كما صعد اليها وطوى العشرين الباقية من سنيه في ظلمة النسيان قبل ان تغمره ظلمة الموت وقديماً قال الشاعر العربي

ما طار طير وارتفع الا كما طار وقع

ثم جاء المركيز «بويسكور» وكان رجلا فاضلا محباً للانسانية عفيفاً في جمع المال كريماً في بذله فارتأى ان يغنط شجرة كبـيرة يأوي الى ظلها المتعبون . وخيـل اليه ان النيدلة وهي ما يقال لها في الفرنسية Somnambulisme (١) تفيد في كشف الغيب وان النيدلان قد يساعد على تشخيص المرض ووصف العلاج .

وفي عام ١٨٢٠ طلب « فواساك » من المجمع الطبي ان يبدي رأيه بعد الدرس والتحقيق في حوادث النيدلة وما يُعزى اليها من النبوءات وتشخيص الامراض والقراءة من خلال الحجب فكانت النتيجة على عكس ما أمل واقرت الندوة الطبية ان المغناطيسية وهم وكل ما ينسب اليها خزعبلات .

(١) ندل الشيء اي خطفه بسرعة والنائم الذي يقوم ويمشي دون ان يدري او يشعر هو كالمخطوف بقوة غريبة من اللاوعي فكلمة نيدلان تنطبق عليه كل الانطباق

ولم يفكر احـد برسم خطة علمية للدرس والتنقيب يمكن التوصل بها الى الاحاطة الالمام عما في هذه الحوادث الغريبة من حقيقة

وفي تلك الحقبة من الزمن كان « براد » احد الاطباء في مانشستر قد بدأ الجائلة العلمية التي أدت الى اكتشاف المغناطيسية الاختبارية بعد ان اظهر الراهب « فابيا » فساد الرأي السائلي ، ووصف حالة الهذيان وسدر الاحساس (١) واثبت بالاختبار امكان انحلاء الشعور بالشيء والحس به في حالة النوم

وذكر « براد » الخدر الموضعي او الفلاجة والتشنجات التي تصيب المهسترين ولم يمض عشرون سنة على هذا التجدد حتى بدأ الجراح أزام من بوردو يفكر فى استعمل التنويم المغنـاطيسي في الجراحة .

ولكن كل هـذا كان محاولات ضئيلة ، والحركة العلمية الكبرى لم تطغَ على سدودها بعد ، والاطباء في حذر من ولوج هذه المباحث الجديدة اشفاقاً على شهرتهم ان تتصدع . الى ان ظهر شاركو في فرنسا وهيدنهام في المانيا .

رأى شاركو عند درسه الهستيريا ان السبب في قصور المجامع العلمية السابقـة عن الوصول الى الحقيقة الكامنة وراء حوادث التنويم هو انصرافهم الى درس الحوادث الخفية الجذابة الغريبـة قبل غيرها فلم تكن لهم خطة منظمة وكان تسرعهم في الوصول الى الحقيقة يعيقهم سنوات عن بلوغها . ولهذا كان يقول لنبدأ اولا بالاشياء البسيطة السهلة التحليل ولا نتقدم الا بعد ان نثبت اقدامنا ولنترك جانباً ما يسمونه حوادث المغناطيسية والتنبؤ بالمستقبل والنظر المضاعف وانتقال الافكار . ولنكن على حذر من التمويه وخداع المهسترين الذين يهمهم ان يلفتوا اليهم الانظار ويحملوا الناس على الاهتمام بهم والتحدث عنهم ويجب ان لا نندفع بالحماسة بل نتأد في السير فلا احد يجبرنا على الاسراع وما يفوتنا اليوم يصـل اليه احفادنا في الغد .

أليس جديراً بالاعجاب هـذا التجرد في خدمة العلم والحقيقة المقدسة واي درس ابلغ من هذا يلقى على كل انسان يستفيد منه في كل مواقف الحياة ولا استثني احداً ، فيذكر ان روما لم تبن في يوم واحد وان الطفرة في الطبيعة محال .

نقولا فياض

(١) سدر البعير تحير بصره لغباً والمصري سبق ونقل الكلمة الى التحير العقلي ونحن ننقلها الى الاحساس بمعنى تحيره بالتخيلات الهسترية .

النصوص الاثرية في نهر الكلب

بقلم الدكتور ستوارت

بجوار مصب نهر الكلب على مقربة من بيروت آثار ونصب قديمة العهد على الصخور كتبت باللغات القديمة كالبابلية والمصرية وزينت برسوم بعض ملوك تلك العهود، بعضها لايزال واضحاً بينا بعضها الاخر اتت عليه عاديات المناخ والزمن فامحى وزال. ولطالما أم السياح وكثير من المغرمين بالقديم تلك البقعة من الارض يتأملون النصب والتماثيل والكتابات المنقوشة على الصخور، فتذهب بهم خيالاتهم وتصوراتهم الى تلك العهود القديمة والحديثة ويتصورون جيوش الملوك وقد نزلت في تلك البقعة الستراتيجية منذ ايام بابل ومصر وما تلاهما حتى العهود الحديثة، فيرددون قول من قال:

تلك آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا الى الاثار

ولقد عثرنا على مقال للدكتور ستيوارت المحاضر الاميركي يسرد فيه تاريخ هذه الكتابات والاثار وينقلها لنا من لغاتها الاصلية التي فك العلماء الرموز القديمة منها فاصبح بمقدورنا الان تفهمها . وها نحن ننقل الى قراء الاديب هذه الترجمات مع الملاحظات الاتية .

١) يلاحظ القارىء ان بعض الجمل موضوعة بين قوسين وهي جمل استنتجها العلماء استنتاجاً لعدم تمكنهم من قرائتها نظراً لتقادم عهدها .

٢) هنالك بعض الجمل غير تامة وبسبب زوال اجزاء منها بفعل المناخ ومرور الزمن ، اما حذفت ترجمتها بتاتاً او نقط مكانها .

٣) لم نشأ تفصيل ما كتب في العصور الحديثة نظراً لسهولة الاطلاع عليه انما اشرنا اليه اجمالا .

نصبا نبوخذنصر

مقدمة : نهضت بابل مرة اخرى نهضة قصيرة الامد بقيادة ملكها الكلداني نبوخذنصر (٦٠٥ — ٥٦٢ ق . م .) وغزا نبوخذنصر هذا اورشليم او مدينة القدس الحديثة واخذ اهلها الى السبي . ولقد اقام عند مصب نهر الكلب نصبين على الصخور يصف بها مآثره الحربية . ولقد تمكن العالم المؤرخ ويسباخ من فك رموزهما فعرف ان احدهما كتب باللغة البابلية القديمة والاخر بالبابلية الحديثة كما أنه اكتشف ان كتابات اخرى مماثلة موجودة في وادي « بريزا » ما بين حمص وطرابلس تعود الى ايام نبوخذنصر وهي رواية اخرى للحدث نفسه .

واليك ترجمة كتابات نهر الكلب .

١) ما كتب باللغة البابلية الحديثة .

. . . الحقول على اتمها ، ثمار ناضجة ، كميات من الثمار ، بلح ، بلح تلمون ، تين ابيض ، خمر ابيض ، نبيذ فاخر ، زبدة ، حليب ، زيت ، سمن . . . . قمح ناضج ، فيض علف الجمال ، خمرة متلألئة ، خمر اراضي ازالاو ، طوئيم ، صمينو ، حلبونو ، ارنباتو ، بتسكوباتي ، مدينة اقشاك ، ارض بطاطي ، موائد مردوخ وزربانيتم سيدي جهزتها تجهيزاً اوفر من ذي قبل [١٥] .

٢) ما كتب باللغة البابلية القديمة :

العمود الاول

٤٠٠ ال "٣٥" من الارض ، بعيدة غير مجاورة ، من ضفة الفرات فوق المدينة الى ضفة الفرات تحت المدينة ، سوراً منيعاً الى الشرق اوصلت الى بابل وحولها قبورهم نبشت ، منحدراتها بالقير والاجر ثبتت ، وسور منيع بالقير والاجر بني ، مرتفعاً كالجبل . ابوابها

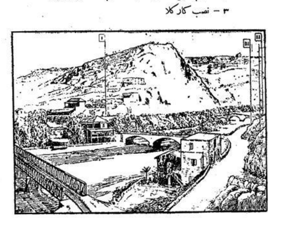
---

٢٥ الأل مقياس يتراوح ما بين ٢٧ و٤٨ قيراطاً .

---

١٥ الاصل والترجمة الالمانية في ويسباخ ص ٣٣ .

مصب نهر الكلب
١ — نصب نبوخذنصر ، ٢ — نصب الظاهر برقوق
٣ — نصب كاركلا



وصلتها معاً مصاريع ابوابها صنعتها من خشب الارز وصفحتها بالنحاس وثبتها في امكنتها ضمن سور بابل من شارع الفن على ضفة الفرات حتى كيش وداخلها، وهي مسافة ساعتين وثلثي الساعة مزدوجتين بسبل الحقل، انشأت حائطاً ترابياً وطوقت المدينة بجرى مائي . وكيلا يحدث انهيار ما ثبت منحدر السور بالقير والاجر . ثم اتممت العمل ومن اقشاك الى سبار، من ضفة الدجلة الى ضفة الفرات ، مسافة خمس ساعات مزدوجة بسبل الحقل ، انشأت سوراً ترابياً منيعاً ، واحطت المدينة بالمياه العظيمة الوفيرة ، كأمواج البحار .

العمود الثاني

انفس الجمال، عجول سمينة ، كباش سمينة ، جديان ، جاعات من الاسماك من اعماق المياه ، طيور السماء ، دجاج ، اوز ، بط ، حمام ، ثوم(؟) ، غار(؟) ، اثمن الحجارة لرصف الشوارع ، خضر طرية ، فيض الحقل ، ثمار ناضجة ، كميات من الثمار ، بلح ، بلح ملون ، تين ابيض ، خمر ابيض ، نبيذ فاخر ، عسل ، زبدة ، حليب ، زيت ، سمن ، كل ما يمكن ان يشتهى ، احسن الاراضي ، خمر لا نهاية له ، سواقي من الخمر ، سنوياً اخذت منهم . نبوكد ري اصر ، ملك بابل ، طالب مدن الالهة انا ، بسبب اسمه القدوس ... مردوخ ... لتجديد هيكل الاله العظيم ساقي القلب لاجل نرغال .... عدوى ، ابواب .... هيكله .

العمود الثالث

بعل صربانى، ادورجينا (هيكله) ، (انا شيدت) اوراش (اياني – انو، هيكلها) (في) دابت (انا شيدت) . لوغال – مردا، ربي أ -- ايجي هيكله، في مردا جددت بناءه عشتار . ايانا ... بعد اوروك وايانا ... عشتار عكد .... كنت الباعث على صنعها ونقلتها الى هناك .. . شمش (ابار ، هيكله) في لرسان انا شيدت . سين ... اغيشيكال ، هيكله ، في اور انا شيدت مجدداً . حرم الاله العظيم ، الذي يسير بجانبي ، شيدت مجدداً . . . الاله العظيم ، الذي في الداخل هنالك بالفرح والابتهاج . سكانه اذنت لهم ان يدخلوا اليه ليتيح لي الاله العظيم ان اشاهد وأرى (اقليمي الملكي) .

العمود الرابع

وفيه ١٨ سطراً لا يمكن الا قراءة المقاطع التالية منها في السطور التالية :

٦) نبو – كدوري – اصر .
٧) ملك بابل
٨) من يغمر الالطف عيده او وليمته .
٩) من البحر الادنى
١٠) الى البحر الاعلى .
١٢) مردوخ .
١٤) خلال حكم (ى) .
١٧) الى (   ) السقف فوق .
١٨) .... افعل الشيء نفسه[١] ....

الكتابات المصرية البائدة من جراء العوامل الجوية

مقدمة : بدأ رعمسيس الثاني (١٣٠٠ – ١٢٣٤ ق . م .) عملياته الحربية كما بدأها سلفاه ستي الاول وتحوتمس الثالث بغزو سوريا الشمالية بأن استولى بادئ ذي بدء على الشواطئ ثم توجه نحو الداخل حتى اتصل بالحثيين لاول مرة[٢] . وسير حملته الاولى على طول الشاطئ الفينيقي حتى وصل الى بيروت حيث شيد بجوارها في السنة الرابعة من حكمه نصباً نقش على الصخور عند مصب نهر الكلب . وهناك نصب آخر يرجع عهده على وجه التقدير الى السنة العشرين من حكمه . وثمة نصب آخر لا تاريخ له . ولقد اتت العوامل الجوية على هذه الانصاب فمحت آثار معظمها وطمست تقريباً كتاباتها التي كانت ولا شك عبارة عن بيان بالحملة التي قام بها . ولانشاء هذه الانصاب قرب الحد الشمالي من فتوحات والد رعمسيس ستي الاول مغزى خاص ، اذ انها تبين الحدود الامامية لفتوحات رعمسيس الثاني[٣] غير ان النصب الاول الرعمسيسي استعيض عنه في العصور الحديثة عام ١٨٦٠ ب . م . باللوحة النابوليونية الحديثة التي يراها كل من زار نهر الكلب .

قلنا ان العوامل الجوية اتت على معظم الكتابات الرعمسيسية غير ان علماء الاثار واللغات القديمة تمكنوا من قراءة المقاطع التالية منها وهاك ترجمتها :

الكتابة الاولى : الاله الصالح، الشديد المظهر ، الامير، العظيم في قدرته ، ملك مصر العليا والسفلى ، سيد القرين ، وس ر – مت – ر س ت ب – ن – ر ، رعمسيس ميامون ، الموهوب حياة[٤] .

---

(١) النص والترجمة الالمانية للعواميد الاربعة في ويسباخ ص ٣٤-٣٦ .
(٢) برستد صفحة ١٢٤
(٣) برستد صفحة ١٢٥
(٤) النص والترجمة الالمانية في ويسباخ ص ١٩

الكتابة الثانية : الاله الصالح، القدير في قدسه، رب القوة . . . الاله العظيم ، مثل اله الافق . المنظور من آمون ابداً ، ملك مصر العليا والسفلى ، سيد البرين ، وس ر - م ت - ر س ت ب - ن - ر ، ابن رع ، رعمسيس ميامون الموهوب حياة .

الكتابة الثالثة : الاله الصالح ، سيد البرين ، رب التـاج ، اليوم (؟) (و) ابداً (؟) .

السنة الرابعة ، سنة الطوفان الرابعة ، اليوم الثاني (٥) . . . .

*

نصب اسرحدون

تذكر كتابات الصخور عند مصب نهر الكلب انتصار اسرحدون الملك الاشوري (٦٨٠ - ٦٦٩ ق . م) على ترحاقة فرعون مصر . ولقد قام ويسباخ بنشر هذا النص الذي كادت تمحي اثاره واليك ترجمته :

(الى اشور ، انو ، انليل) ، ايا ، سـين ، شمش ، اداد ، مردوخ (عشتار ، السبعة ، الالهة العظيمة) ، جميعهم الذين يرسمون مصير (الملوك الذين يوالونهم) ماتحيهم المقدرة والقوة : (اسرحدون، الملك العظيم الملك) القدير ، ملك اشور ، نائب ، ملك بابل ، ملك سومر وعكد ، ملك كردونياش - كل هذه البلدان ، ملك ملوك (مصر ، باتوريو) وكوش ، ملك الاقطار الاربعة (في العالم) ، ابن سنحاريب ، (الملك العظيم ، الملك القدير) ، ملك الكائنات ، ملك اشور .

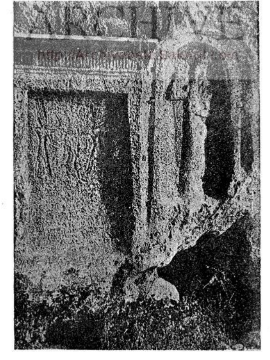
وسط الفرح والابتهـاج دخلت ممفيس ، مدينة (ترحاقه) الملكية . . . . . المكسوة بالذهب . جلست وسط الابتهاج اسلحة . . . . . هدايا (؟) من الذهب ، فضة . . . بعد ذلك . مكانها ، آلهتها ، الاهاتها ، التي ترحـاقه ، ملك طيبة ، مع املاكهم . . . كغنيمة اشتهيتها .

ملكته ، حرمه ، اوشنشورو ، ولي عهده . . . حاشيته . . . . ملك . . . . من حجارة الجبل عاج . . . . . التي (كانت من ذهب ، . . . . آنية من ذهب ، فضة ، حجارة كريمة من كل الانواع . . . من القصر ، التي لا . . . . ، . . . . . . مبنية بحذق ، انا فتحت . صنـاديق (؟) . . . . منضدات (؟) . . . . . ، الملكي .. الملك . . حفظوا لهم ، مع ١٦ . . . ٣٠ تاجاً لنساء الحرم ، . . . حجارة ، آجر . . . بكميات عظيمة . . . كنز الذهب ، الفضة ، الاثمد . . . مثل . برونز ، رصاص ، مغنيسيوم عـاج . . . املاك شعب سوتو (؟) . . . صهره ، اسرته . . . الاميرة . . . اطبـاء ، منجمون . . . خبراء بالجواهر . . . ابن بتروقي (؟) . . . ترحاقه الى معاقلهم .

الكتابات اللاتينية

مقدمة : اذا ما توجهنا جنوبي الجسر الحجري عند مصب نهر الكلب نجد حيث تؤدي الطريق الى الجسر العـائد الى الحقبة الاسلامية كتابة لاتينية فيها اسم الامبراطور مرقس اوريليوس الروماني (١٦١ - ١٨٠) وربما يعود الفضل في انشاء الاثر هذا الى الامبراطور الروماني كاراكالا[٦] (٢١١ - ٢١٧) الذي يعلن انه من ذرية انطونين الورع مباشرة . وينسب انشاء الطريق في القطاع الجبلي الى الجيش (الجيون) الثالث الغولي . واليك ترجمة الكتابة :

الامبراطور القيصر مرقس اوريليوس انطونين ، الورع ، السعيد ، القدير ، غازي البرثيين ، والبريطونيين ، والجرمـانيين السامي ، المطلق الحكم وسيد الكهنة ، بعد ان عبر الجبال المشرفة على نهر ليكوس (نهر الكلب) ، وسع الطريق ، مستخدماً لذلك جيشه الانطونيني الجيش الثالث الغولي) .



الاثار المصرية والاشورية في نهر الكلب

(٥) ويسباخ ص ٢٠ .

(٦) موتارد ص ١٠

مقدمة : على الطريق السفلى ثلاث كتابات احداها على حجر في حائط روماني والكتابتان الاخريان منقوشتان على الصخر[٧]. اما الاولى فهي ليست سوى قطعة كتبت عليها بعض الحروف وربما كانت جزءاً من رقيم اكبر نقش على نصب مشيد.

غير اننا اذا ما ذهبنا صعداً نشاهد اهم هذه الكتابات الثلاث على سطح صخر وهي تتألف من اثني عشر سطراً في كل منها نحو ستة وعشرين حرفاً باللغة والحروف اليونانية. ويذهب المؤرخ باين[٨] ان الشخص بروكلس المذكور في الكتابة والذي اقيم النصب من اجله كان اميراً فينيقياً شاباً فقد مركزه في عكاء واصبح بعد ذلك حاكماً على بعلبك. وهكذا قبل قيامه بمهمته الجديدة قدم الذبائح لاله الاعظم حينما الكتابة عام ٣٨٢ بعد المسيح. واليك ما جاء فيها :

يا بروكلوس، صديق تاتيان بن ارسيوس من اهل عكا. اما مولدك، فمن اجداد كرام. تركت وراءك ملكية ابائك لتصبح من طبقة الناس، فينيقياً في زهرة العمر. وبارادة الالهة اصبحت حاكم بعلبك. حالا اقام الطقوس المقدسة للاله ملك بقدار ما يظن انه حسن لفينيقيا نفسها، بالنسبة ايضاً الى الغاية التي ستجتز نفسها، يا اعجوبة عظيمة. ان اشد الاقسام وعورة في رؤوس الارض قد مهدها في الوسط. حتى من البداية الى النهاية بعد اجتاز الطريق السوي نتمكن من مجانبة المشارف او المداخل الصعبة(؟) فالعلو دائري بالنسبة الى الطريق (؟)

الكتابات العربية

مقدمة : مع ان الجسر القديم عند مصب نهر الكلب يعود تاريخه الى اوائل القرن التاسع عشر الا ان اساسه يرجع الى زمن ابعد من ذلك. وبامكاننا العودة به الى القرون الوسطى دون ان نقتفي اثره الى ايام المصريين او الاشوريين او الرومان.

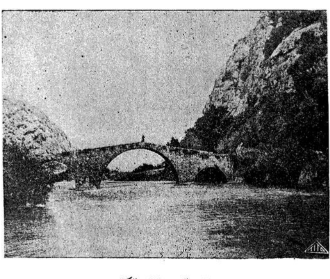
واذا ما اجلنا الطرف بجوار ضفة النهر اليسرى تحت الطريق العام القديمة نرى كتابة منقوشة على الصخر بالعربية، يذكر فيها انه قد تم الجسر بأمر الامير سيف الدين ابو العزائم إطمش قائد جيوش مملوك سلطان الملك الظاهر برقوق (١٣٨٢ — ١٣٩٨). واليك النص :

بسم الله الرحمن الرحيم. صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم. لقد تم بناء هذا الجسر المبارك بأمر من ذي المنصب الرفيع الكريم، سيد الامر عبد (السلطان) السيفي ابو العزائم اطمش الحاسبي الظاهري، قائد جيوش الاسلام، رئيس الاركان «جدمار» الملك الظاهر (اي برقوق) جعل الله الجنة مأواه... كل من يحدث فيه شيئاً من ذلك عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين... الخادم الفقير الى الله القدير الحاج بهادور... (عمل) في دمشق المدينة المحمية في شهر محرم.

حمد سيدنا السلطان الملك الظاهر برقوق وحمد نصره.

ويرى الزائر اليوم لمصب نهر الكلب آثاراً كثيرة كتب على بعضها باللغة الفرنسية وكتب على البعض الآخر بالانكليزية، وهي تعود في تاريخها الى الازمنة الحديثة، وأشهرها النصب الفرنسي الذي اقامه الجنرال غورو، والنصب البريطاني الذي اقامه الجنرال اللنبي يسجلان فيه ذكرى دخولها الى هذه البلاد... وليس في نشر نصوص هذه الانصاب الحديثة كبير اهمية، فبوسع كل زائر ان يراها على الطريق العام الممتد من بيروت الى طرابلس وان يقرأها بسهولة وجلاء.

(٧) باين ص ٥.
(٨) باين ص ١١.



الجسر العربي على نهر الكلب

سويداء !..

★

للناس ما شاؤوا ... ولي فترة   ارتاح فيها من طلاب المحال
في معزل عن مغريات الفنا   مكفراً ، في مطهر الاعتزال
لا القلب خفاق بما يشتهي   ولا يضير الفكر وخز السؤال
ولا تهيم الروح ، ظمآنة   وراء حق في سراب الضلال
ولا شعوري ، راكباً حدسه   يرقى الى المجهول عبر الخيال ...
في فترة اعيشها مغمضاً   جفني على المقدور في كل حال
أنسى بها الذكرى وأنسى المنى :   ماض وآت ... كل فجر زوال
وهمٌ هي الدنيا ، وماذا نرى   من عالم المحسوس الا الظلال؟ .
فيا هوى الايمان ، يا ظالمي !   ان لم تكن وهماً ، فأنت الكمال ! .

سليم حيدر

علاقة الشريعة الاسلامية بالشريعة الرومانية

بقلم الدكتور صبحي المحمصاني

استاذ المجلة والقانون الروماني في جامعة بيروت الاميركية

رئيس غرفة في محكمة الاستئناف

☆

قدم الدكتور صبحي المحمصاني للطبع كتابه الجديد « فلسفة التشريع في الاسلام » ، وهو كتاب يتناول دراسة الشريعة الاسلامية على ضوء مذاهبها المختلفة وضوء القوانين الحديثة . ويسر الاديب ان تقدم لقرائها فصلاً من فصول هذا الكتاب القيم الذي سيظهر خلال الشهر القادم .

تباين الآراء

الله

موضوع علاقة الشرع الاسلامي بالقانون الروماني موضوع دقيق ، حصل فيه خلاف كبير بين الباحثين ، فمنهم من ذهب الى ان الشرع الاسلامي تأثر بالقانون الروماني ، ومنهم من نفى ذلك ومنهم من توسط وذهب الى رأي معتدل

وان الفريق الاول جله من المستشرقين ومن العلماء الغربيين امثال غولدزيهر في كتابه « محاضرات عن الاسلام » (١) وفون كريمر في كتاب « تاريخ الثقافة الشرقية في ايام الخلفاء »(٢) وآموس في كتاب « القانون المدني الروماني » (٣) واميليوبوسي في كتابه « الابحاث في العلاقات بين بيزنطية والاسلام »(٤) وغيرهم

ومن الفريق الثاني الاستاذ فائز الخوري في كتاب « الحقوق الرومانية »(٥) والاستاذ عارف النكدي في رسالته « القضاء في الاسلام »(٦) وفضيلة الشيخ محمد سليمان في رسالته « بأي شرع نحكم »(٧) وغيرهم .

ومن الفريق الثالث السيد محمد حافظ صبري في كتاب المقارنات والمقابلات(٨) والسيد أحمد امين في كتابي فجر الاسلام(٩) وضحى الاسلام(١٠) والسيد عطية مصطفى مشرفه في كتاب « القضاء في الاسلام بوجه عام »(١١) والدكتور شفيق شحاته في كتابه « النظرية العامة للالتزام في الشرع الاسلامي »(١٢) وغيرهم ايضاً .

وانت ترى ان الفريقين الثاني والثالث كلهم من العلماء او الفقهاء الشرقيين ، وهم بوجه عام ، قد دققوا في المسألة اكثر من تدقيق الفريق الاول . فاصاب بعضهم فيما كتب وتأثر البعض الاخر

---

(١) Goldziher , Vorlesungen uber den Islam
انظر ترجمته الفرنسية : Le dogme et la loi de l'islam
باريس ١٩٢٠ ص ٣٩ .

(٢) Von Kremer, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen فيينا ١٨٧٥ ، ج ١ ص ٥٣٢ وما بعدها .

(٣) Amos, Roman Civil Law ص ٤٠٦ – ٤١٥ .

(٤) Emilio Bussi, Ricerche intorno alle relazioni fra retratto byzantino et musulmano ميلانو ١٩٣٣

(٥) دمشق ، ١٩٢٤ ص ٩ – ١٢ .

(٦) دمشق ، ١٩٢٢ ص ٣ .

(٧) القاهرة ١٩٣٦ رقم ٤٠ .

(٨) مصر ١٩٠٢ ص ٥ و ١٨٦ .

(٩) ١٩٣٣ ص ٢٩٠ .

(١٠) ج ١ (١٩٣٤ ص ٢٧٨) و ج ٢ (١٩٣٥ ص ١٠٤) .

(١١) مصر ١٩٣٩ ص ١١٧ وما بعدها .

(١٢) بالفرنسية ، طبع في القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ١٨٠ .

بالشعور القومي بعض التأثر .

ثم ان الفريق الاول ، وكلهم من الغرباء، معظمهم لم يدرسوا الفقه الاسلامي درساً عميقاً ، بل اقتنعوا من ذلك في غالب الامر بدراسات سطحية ، لا تعد كافية من الناحية العلمية . واليك مثلاً من ذلك : قال آيموس في جزم : « ان الشرع المحمدي ليس الا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية معدلاً وفق الاحوال السياسية في الممتلكات العربية»[١٣] فهذا النظر القاسي يثير الاستخفاف، لانه منتهى المبالغة ، ولانه مجرد عن البرهان العلمي الذي يقتضيه البحث التاريخي في مثل هذه الامور .

وان خلاصة الحجج التي تذرع بهـا من قال بتأثر الشريعة الاسلامية بالشريعة الرومانية هي الشبه الموجود او المدعى وجوده بين الشريعتين في بعض الاحكام ، ومداخلة الشريعة العبرية ، وتأثير العادات في البلاد المفتوحة ، ونحن نرى ان البحث في قيمة هذه الحجج يثير التدقيق في المسائل الاتية ، وهي :

أولاً : هل ان الشبه المزعوم يستحق الاهتمام ام انه طفيف لا يذكر ؟

ثانياً : هل ان مجرد الشبه يكفي للدلالة على الاقتباس ؟

ثالثاً : ماذا كان موقف الفقهاء المسلمين من القانون الروماني؟

رابعاً : ما هي نواحي الاتصال بين الشريعتين ؟ وما هي علاقة الشريعة اليهودية وعادات الرومان في البلاد المفتوحة بهذا الموضوع ؟

مقدار الشبه بين الشريعتين

قال فون كرير[١٤]. ان مواضع الشبه بين القانون الروماني والشرع الاسلامي هي عديدة . واهمها قاعدة البينة على المدعي ، وسن البلوغ والرشد ، وبعض احكام المعاملات التجارية كالاجارة والبيع ، والتفريق بين البيع والمقايضة وهاك بيان حقيقة هذا الشبه وتفسيره .

فقاعدة « البينة على المدعي » اي قاعدة وضع عبء الاثبات على المدعي لدى القضاء ، تستند في الشريعة الاسلامية الى الحديث الشريف : « البينة على المدعي واليمين على من انكر »[١٥]

(١٣) هذا ما ذكره الاستاذ « لي » في كتابه تاريخ الشرائع (لندن ١٩١١ ص ٣٢٢ » نقلا عن كتاب آيموس المذكور » ص ٤١٥) .

(١٤) في كتابه المشار اليه ص ٥٣٣ و ٥٣٦ – ٥٣٧ .

(١٥) رواه السيوطي في الجامع الصغير (رقم ٣٢٢٥ و٣٢٢٦) نقلا عن الترمذي والبيهقي .

ومعلوم ان الحديث اقدم تاريخاً من الفتوحات الاسلامية في البلاد التي كانت خاضعة للشريعة الرومانية ، ومن ثم لا يمكن ان يكون مقتبساً عن هذه الشريعة .

ثم ننبه الى الشبه المزعوم في مسألة التفريق بين البيع والمقايضة في الشريعتين ، ونثبت ان الشبه وهمي . فالقانون الروماني فرق بين البيع اي مبادلة المال بالنقد ، وبين المقايضة اي مبادلة المـال بالمال . فالبيع[١٦] كان من فئة العقود الرضائية ، التي كانت تنعقد بمجرد الايجاب والقبول اي بمجرد رضى الطرفين المتعاقدين ولكن المقايضة[١٧] كانت من فئة العقود « غير المسماة » ، وهذه لم يكن الرضى وحده كافياً لانعقادها ، بل انها كانت تستوجب فوق ذلك تنفيذ العقد من قبل احد المتقايضين[١٨] . وان من درس القانون الروماني يعرف تفصيل ذلك وأهميته العملية . اما الشرع الاسلامي، فلم يتعرف الى هذا التفريق الشكلي ، بل ان المقايضة فيه ليست الا نوعاً خاصاً من انواع البيع الرضائي[١٩] . ثم ان عقدي البيع والاجارة ، وان تشابها في الشريعتين من ناحية بعض احكامها العامة ، بسبب ارتكاز هذه على مبادي، التبادل الاقتصـادي والمعاملات التجارية التي استوجبت وجودها الا ان في العقدين اختلافاً في احكام تفصيلية اخرى كخيار الرؤية ، وغيره من الامور العديدة .

واخيراً ليس في مسألة سن البلوغ والرشد في الشريعتين شبه جلي ، فعند الرومان كان البلوغ محدداً بتمام السنة الثانية عشرة للفتاة وتمام الرابعة عشرة للفتى[٢٠] ولكن الشريعة الاسلامية في الرأي السـائد اعتبرت ان منتهى سن البلوغ هو خمس عشرة سنة[٢١] .

فاذن ، ان هذه الامثلة فيها بعض المبالغة ، وعلى كل فليس فيها البرهان المقنع على تأثر المسلمين بفقه الرومان . وانها بفرض صحتها ، ليست الا اليسيرة لا تكاد تستحق الذكر ، لا سيما اذا نظرنا الى الفروق العديدة بين الشريعتين . فليست العبرة بوجود بعض مواضع الموافقات ، لكن العبرة بأهمية هذه المواضع بالقياس

«١٦» Emptio - Venditio

«١٧» Permutatio

«١٨» Do ut des . انظر القانون الروماني لجيرار ص ٦٢٧ ومجموعة الديجستا (D, 19, 4)

«١٩» انظر المادتين ١٢٢ و ٣٧٩ من مجلة الاحكام العدلية .

«٢٠» يوستينيانوس ، الاحكام Inst. 1, 22

«٢١» المادة ٩٨٦ من المجلة .

الى مواضع الفروق . فالفروق الاساسية كثيرة يطول بنا القول لو اردنا استقصاءها . وان المقام ههنا لا يسمح حتى بذكر اهمها . ومع ذلك هاك بعض الامثلة منها :

اولاً : ان النساء الرومانيات كن تحت الوصاية الدائمة (٢٢) وكن مدى حياتهن لا يمكنهن التصرف في اموالهن الا باجـازة الوصي . اما الشرع الاسلامي ، فقد اعطى المرأة مبدئياً الاهلية التامة لاجراء جميع التصرفات الشرعية .

ثانياً : ان المهر عند الرومان يدفع للزوج من طرف الزوجة او احد ذويها بينما هو عند المسلمين يدفع الى الزوجة من طرف الزوج (٢٣) .

ثالثاً : التبني لا يقره الشرع الاسلامي (٢٤) مع انه كان معروفاً في القانون الروماني (٢٥) .

رابعاً : ان الشكل والتعقيد كان ملموساً في عقود الرومان وفي اصول محاكماتهم ، مع ان الامر على العكس منه في الشرع الاسلامي المبني على القاعدة : « ان العبرة في العقود للمقـاصد والمعاني لا للالفاظ والمباني . وان الامور بمقاصدها » كما سنوضح في محله .

خامساً : ان حوالة الدين لم تكن جائزة في القانون الروماني مع انها جائزة بلا خلاف في جميع المذاهب الاسلامية .

سادساً : ان قواعد الارث والوصية مختلفة في الشريعتين اختلافاً بيناً . مثلاً في الشريعة الاسلامية ، « لا وصية لوارث » اما عند الرومان ، فان الوصية اخترعت اساساً لاجل تعيين الوارث .

سابعاً : ان احكام الشفعة والوقف الذري المعروفة في الشريعة الاسلامية لا نجد لها نظيراً في القانون الروماني . الخ . الخ . . .

(٢٢) Tutela perpetua mulierum

(٢٣) في الحديث الصحيح « التمس ولو خاتماً من حديد » روي في الصحيحين وفي مسند احمد وفي سنن ابي داود (الجامع الصغير للسيوطي رقم ١٥٦٤)

(٢٤) عملا بالاية الكريمة « ومـا جعل ادعياءكم ابناءكم . . . ادعوهم لآبائهم » الاحزاب (٣٣) ٤ و ٥ ، انظر احكام التبني في الشريعة الاسلامية في مقال لمؤلف هذا الكتاب ، منشور في النشرة القضائية اللبنانية ، السنة الاولى ج ١ ص ٦ .

(٢٥) Adoptio et adrogatio

دلالة الشبه بحد ذاته

ما هي قيمة الشبه بحد ذاته ، اذا ما وجد بين شريعتين ؟ وهل في ذلك دلالة كافية على اقتباس احداهما من الاخرى ؟ وبعبارة ثانية ، ايكفي وجود بعض الموافقات بين شريعتين لاثبات ان الاولى اخذت عن الثانية ؟

لاريب في ان مجرد الشبه وحده لا يكفي بوجه عام لاثبات الاخذ . وتفسير ذلك يحتاج الى تفصيل بين القواعد الكلية وبين الاحكام الجزئية .

فالقواعد الكلية كتحريم القتل بدون حق ، وكتحريم السرقة والزنا وما اشبه ، هذه ترتكز على مبادىء العدل الاولية . وهي لذلك ابدية واحدة . فلا غرو ان تكون متشابهة قديماً وحديثاً وفي مختلف الاحوال والامصار والشعوب ، سواء أكانت بين تلك الشعوب علاقات ومبادلات ام لم تكن .

اما الاحكام الجزائية فليست دائماً متشابهة فيما بينها . بل هي في الغالب مختلفة باختلاف المكان والزمان والظروف الاجتماعية الخاصة . ولكن الشبه غير ممتنع فيها .

فاذا وجد هذا الشبه ، فكما انه يمكن ان يأتي عن طريق التقليد والاقتباس ، كذلك هو جائز بغير هذه الطريق .

وتفسير ذلك ان الاحكام مبنية عـلى علل واسباب . فاذا وجدت الاسباب والعلل متشابهة في بلدين ، كان من المعقول ان تكون الاحكام المبنية عليها متشابهة فيهما ، وفاقاً للمبدأ القائل ان نظائر الاسباب تولد نظائر النتائج . وهذه القاعدة ليست خاصة بالاحكام الشرعية فحسب ، بل هي شاملة لجميع المظاهر الاجتماعية كما ترى في الشبه الملموس بين الحضارات المختلفة .

واوضح المثل على ذلك التبني ، اي ادخال الولد الغريب الى العائلة مكان الولد الحقيقي ليقوم مقامه في الحقوق والواجبات فهو قد كان معروفاً عند الهندوس القدماء وعند الرومان . وكانت علة وجوده خوف رئيس العائلة من ان يموت بلا وارث ، وحرصه على ايجاد من يتابع الحياة العائلية بعده ، ويقوم بما يجب لتقديس ذكرى الاموات (٢٦) فهل ان هذا الشبه بين شرائع الشعبين البعيدين يدل على ان احدهما اقتبس احكام التبني عن الاخر ! وان قيل هذا فأي دليل ثمة على صحته ؟

(٢٦) انظر كتاب ماين « القانون القديم ص ١١٤ » وكتاب ده كولانج (ص ٥٥ – ٥٦) .

ولا ريب ان الامثلة من هذا النوع لا تعد ولا تحصى . خذ الشبه بين الشريعتين الاسلامية والانكليزية في مسألة حكم الفضولي الذي يتصرف في مال غيره بلا اذنه،او خذ الشبه بينهما في بعض نواحي نظرية سوء استعمال الحقوق . فهل معنى هذا الشبه الواضح ان احدى الشريعتين اقتبست عن الاخرى ، رغم ان الثابت يدحض ذلك ؟ أيقال ههنا ان الشريعة الاسلامية اخذت عن الانكليزية ، وهذا لا يعقل لان الاولى اقدم من الثانية ، بل هي وجدت قبل ان تنشأ الثانية ؟ او يقال ان الشريعة الانكليزية اخذت عن الاسلامية ، وهذا لا دليل عليه ، بل الدليل التاريخي على عكسه ؟ فالشريعة الانكليزية لم تأخذ في الاصل عن الشرائع الاوروبية القريبة منها ، فكيف تأخذ عن الاسلامية البعيدة .

والحاصل ان الحضارات المختلفة تتشابه دائماً في قواعدها الكلية، وتتشابه احياناً في احكامها الجزئية اذا كانت هذه الاحكام مبنية على علل ومصالح واحدة . وهكذا ، لا يكون هذا الشبه بحد ذاته دليلاً كافياً وحده لاثبات النقل او الاقتباس .

فاذن ، ان الشبه لا بد منه بين الشرائع ، ونحن نقر انه لا بد من وجوده بين الشريعتين الاسلامية والرومانية ، في القواعد الكلية وفي الاحكام الجزئية ، للاسباب التي اسلفناها ، وهذا ما يفسر وجود الشبه الملموس بين كثير من القواعد الكلية في الفقه الاسلامي وبين ما يقابلها من الامثال الشرعية اللاتينية ، التي سنبينها في محلها .

وعلى كل حال ، فان كثيراً من هذه الامثال اللاتينية لم تكن في القانون الروماني . بل زيدت عليه فيما بعد ، أيام النهضة العلمية الاوروبية ، بواسطة الشراح والمفسرين ، الذين اخرجتهم مدرسة بولونيا الايطالية ، وغيرها من المدارس الاوروبية . ولعل هؤلاء تأثروا في ذلك بالثقافة العربية التي وصلتهم عن طريق الاندلس وغيرها ، كما تأثروا بتجارتهم وصناعاتهم التي اتصلت اليهم بطريق البلاد المجاورة للبحر المتوسط . وها ان دور الكتب في اوربا لا تزال غنية بالكتب والمخطوطات العربية ، وان اللغات الاوروبية لا تزال تحمل من الكلمات العربية الشيء الكثير .

ومثل واحد يكفي لتأييد ما ذكرنا . فمن الثابت في تاريخ قانون التجارة ان السفتجة والحوالة لم تعرفا في اوروبا قبل القرن الثاني عشر الميلاد ، مع انهما كانتا معروفتين في جميع كتب الفقه الاسلامي ، وخاصة في كتب الحنفيين ، التي ترجع الى القرن الثامن الميلاد . وهما ، كما قال غراسهوف ، نقلتا الى الغرب بعد أربعة قرون ، بواسطة ايطاليا في ابان الحروب الصليبية ، وبواسطة الاندلس يوم كانت لا تزال بلداً عربياً . وهذا التأثير ترك طابعه في كلمة الحوالة نفسها فقد قيل ان كلمة « آفال »(٢٧) الفرنسية ، المستعملة بمعنى تظهير السفتجة بتوقيع شخص ثالث على سبيل الكفالة ، مشتقة من كلمة الحوالة العربية ، ومثلها ايضاً كلمة آفاري(٢٨) الفرنسية المستعملة في قانون التجارة البحرية بمعنى الخسائر البحرية ، هي مأخوذة من كلمة العوار العربية(٢٩) .

ولم نكن لنستشهد بما ذكرنا لو لم نتعود من البعض انكار الحقائق التاريخية والادعاء المجرد بأن كل ما في شرائع العرب والمسلمين مقتبس عن الرومان . ولو عرف الرومان السفتجة والحوالة، لما أحجم البعض عن مثل هذا الادعاء ايضاً .

موقف الفقهاء المسلمين من القانون الروماني

لا ريب فيه ان المسلمين لم يطلعوا على كتب الرومان في الفقه ، ولم يترجموا شيئاً منها ، ولم يذكروا شيئاً عنها . ولو فعلوا ذلك لاعترفوا به ولكان اثره باقياً في كتبهم ، كما اعترفوا بترجمة كتب اليونان والفرس في العلوم المختلفة وفي الادب والفلسفة ، وكما تدل آثار ذلك في كتبهم وفي الكتب المترجمة وفي الكلمات الدخيلة المنقولة .

ولقد كان الباعث على احجام الفقهاء عن دراسة القانون الروماني عقيدتهم الثابتة ان الشريعة الاسلامية إلهية مبنية على القرآن الكريم في اساسها ، وانها مثل الكمال في التشريع . لذا كانوا ينبذون كل ما صدر عن غير المسلمين في هذا العلم ، ويحرمون الاخذ به . وبهذا

(٢٧) Aval

(٢٨) Avaries

(٢٩) راجع ما نقله بول هوفلان Paul Huvelin عن غراسهوف Grasshoff في مقاله المنشور في مجلة Annales de droit commercial لسنة ١٩٠١ باريس ، ص ١ – ٣٠ وخاصة ص ٢٢ – ٢٦ .

أقر فون كريمر نفسه(٣٠)، برغم ادعائه بتأثير الرومـان على الفقه الاسلامي .

وفوق ذلك، لو ان فقهاء الاسلام اطلعوا على كتب القانون الروماني، لكانوا نقلوا عنهم نظرية الموجبات والعقود العامة، التي تعد احسن ما تركه الرومان في هذا الميدان . ولما بقيت كتب الفقه خالية من مثل هذه النظرية العامة .

علاقة الشريعة اليهودية

وبعد

فكيف تأثر الشرع الاسلامي بالقانون الروماني! وعن أي طريق نفذ هذا التأثير؟ فمن هذا السؤال، اجاب فون كريمر ان التأثير جـاء عن طريق اليهودية، وعن طريق العادات في البلاد المفتوحة، مع اعترافه بأن في الامر مجالاً للشك والتردد(٣١) .

فالجواب عن الطريق الاولى سهل، لان الرأي المختـار عند الاصوليين المسلمين، كما قدمنا، يعتبر قاعدة « شرع من قبلنا شرع لنا » من الادلة الموهومة . لذلك تعد احكام الشريعة اليهودية مردودة عند المسلمين ما لم يكن في المسألة دليل شرعي يوافقها من نص او اجماع .

(٣٠) في كتابه المذكور ص ٥٣٣ – ٥٣٤ .

(٣١) Zweifelhaft . المصدر ذاته ص ٥٣٧ .

نعم ذكر بعض الباحثين، ومنهم ابرهام غـايغر في كتابه « ماذا اخذ محمد عن اليهودية ؟»(٣٢) وجود شبه بين الشريعتين في بعض المسائل، كالعدة ومدة الرضاعة . ولكن الشبه في هذه المسائل الجزئية لا عبرة به، لان الخلاف موجود في غيرهـا أهم منها(٣٣) .

مثلا لم يكن الزواج محرماً في الشريعة اليهودية بين اقرباء الحاشية من الدرجة الثالثة، كما بين الخال وابنة اخته(٣٤) . ولكن هذا محرم في الشرع الاسلامي بدليل الآية الكريمة : حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعمـاتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت . . »(٣٥) .

ثم ان الرضاع يعتبر من موانع الزواج في الشرع الاسلامي، بعكس الشرع اليهودي(٣٦) .

ومثل اخير : يتوجب على الوارث دفع ديون الميت الزائدة عما تركه الميت من الاموال، وذلك في الشريعتين الرومانية والعبرية وفي بعض الشرائع اللاتينية كالقانون المدني الفرنسي . ولكن الوارث لا يجبر على ذلك في الشريعة الاسلامية، ولا في بعض الشرائع

(٣٢) Was hat Mohammed aus den Judenthume anfgenommen
انظر ترجمته ليونغ بعنوان « Judaism and Islam » طبع مدراس ١٨٩٨ ص ٦٩ – ٧٠ .

(٣٣) انظر في الفروق بين الشريعتين، كتاب المقارنات والمقابلات المذكور .

(٣٤) انظر مـا كتب تحت كلمة زواج في الموسوعة اليهودية The Jewish Encyclopedia وفي قاموس التوراة لها يستنغ (Hasting's Dictionary of the Bible) . انظر ايضاً المادة ٢٢ من قانون العائلة العثماني الصادر في ٢٥ تشرين الاول سنة ١٣٣٣، وكتاب احكام القرآن الاجتماعية لروبرتس « لندن ١٩٢٥ ص ١٤ (Robert's Social laws of the Qoran) والعهد القديم من الكتاب المقدس في سفر اللاويين ٨ « ٧ – ١٧ » و ٢٠ « ١١ – ٢١ » وفي سفر التثنية ٢٢ « ٣٠ » و ٢٧ « ٢٠ و ٢٢ – ٢٣ » حيث ذكرت محرمات الزواج دون بنات الاخت وبنات الاخ .

(٣٥) سورة النساء « ٤ » ٢٣ .

(٣٦) انظر قانون العائلة المذكور في المادتين ١٨ و ٢٦ .

الحديثة كالانكليزية والالمانية(٣٧) .

عادات الرومان في البلاد المفتوحة

ان تأثير هذه العادات على الشرع الاسلامي موضع نظر، وتحقيق . فالثابت ان هذا الشرع مصدره الاساسي النص في الكتاب والسنة ، وان هذا النص وصل الى المسلمين عن النبي (ص) بالوحي الالهي في طور التشريع الاسلامي الاول ، حين لم تتعد الحياة الاسلامية جزيرة العرب ولم تحتك بالثقافة الرومانية ومعلوم ان محاولة الرومان غزو جزيرة العرب كانت فاشلة منذ القديم .

ولكنه عندما اتسعت الفتوحات الاسلامية، واستولى المسلمون على بعض البلاد التي كانت خاضعة للحكم الرومـــاني ، كمصر والشام، اخذ فقهاؤهم وقضاتهم يعرضون عادات تلك البلاد على اصول الشرع الاسلامي ، فما كان منها ملائماً لنصوصه ومقاصده وحكمته قبلوه بالاجتهاد عن طريق الاجماع او الاستحسان او المصلحة او غير ذلك من الادلة الشرعية التفصيلية . وما كان مخالفاً للشريعة نبذوه وحكموا بمنعه .

ولا بد من التنبيه الى ان العادات هذه لم تكن رومانية بحتة، بل كانت عادات تجارية شاملة لجميع الشعوب القديمة ، لاسيما شعوب البحر الابيض المتوسط . ولقد تأثر الرومان انفسهم بهذه العادات وادخلوها في قانونهم باسم « قانون الشعوب »(٣٨) لتفريقه عن القانون الروماني الاصلي المعروف بالقانون الاهلي او المدني(٣٩)

وعلى كل حال ، فالفقه الاسلامي لم يقر بعض هذه العادات التجارية الشاملة فحسب ، بل اقر على هذا النحو بعضاً من عادات جميع البلاد التي خضعت للحكم الاسلامي . ومن هذه البلاد ما لم يكن خاضعاً للحكم الروماني ، كالعراق وفارس وتركستان وغيرها وسنرى مثلا كيف ان العرف عند اهل بلخ وبخارى كان الباعث على تجويز البيع بالوفاء عند الفقهاء الحنفية المسلمين .

وعلى الجملة ، فان الشعوب كالافراد لا تعيش لوحدهـــا ، بل هي جزء من كل تتشارك في المبادلات والمعاملات المختلفة فهي تتبادل الثقافة والعلوم والعادات ، كما تتبادل العروض والسلع والصناعات . فالتقليد بين الشعوب ، كالتقليد بين الافراد ، عامل اساسي للحياة الاقتصادية والاجتماعية . والحوادث التاريخية جميعاً لها تأثيرها في تطور الحضارة ونشوئها ، والفتح الاسلامي لم يخرج عن هذا النظام . فانه كان الباعث على امتزاج الثقافة الاسلامية بالثقافات القديمة التي كانت في البلاد المفتوحة ، وكان من جراء ذلك كله تأثير متبادل لا ريب فيه .

الخلاصة

والان نستبين مما قدمناه ان الموافقات بين الشريعتين الاسلامية والرومانية طفيفة جداً بالقياس الى الفروق . ونستبين ان هذه الموافقات لا تدل بحد ذاتها على تأثير الاولى بالثانية .

ثم ان موقف الفقهاء والمسلمين كان موقفاً سلبياً ازاء القـــانون الروماني ، بالنظر الى روح الشريعة الاسلامية ومصدرها الالهي . وان العادات التي اقتبسها الفقهاء في البلاد التي كانت خاضعة للحكم الروماني دخلت الى التشريع الاسلامي ان لم يكن ما يناقضها في نصوص الشرع او في مبادئه الاساسية .

وعلى كل ، فالعادات هذه لم تكن رومانية بحتة ، بل كانت عادات تجارية معروفة عند العرب وعند باقي شعوب البحر المتوسط، وقد تأثر بها الرومان انفسهم وادخلوها في شريعتهم قبل المسلمين ، وان الشريعة الاسلامية ، كما تأثرت ببعض العـــادات الاجنبية القليلة ، كذلك تركت هي آثارها في مدنيات جديدة ناشئة على الوجه الذي اوضحناه .

وفيما عدا هذا التأثر الطفيف ، فالحقيقة التي لا ريب فيها هي ان الشريعة الاسلامية قائمة بذاتها غير منقولة عن غيرهـــا . فهي شريعة مستقلة تمام الاستقلال ، لها اصولها الخاصة وتاريخها المجيد . وهذا ما توفق مندوبو الازهر الشريف باقراره من قبل المؤتمر الدولي للقانون المقارن المنعقد في لاهاي عام ١٩٣٧(٤٠) .

صبحي المحمصاني

«٣٧» انظر كتاب ده كولانج المدينة القديمة « ص ٧٧ » وكتاب المقابلات والمقارنـات « المادة ٣٣١ » والفتاوى الخيرية « ج ٢ ص ٦٤ و ٧٣ » .

«٣٨» Jus gentium ، راجع مقدمة بولوك المذكورة على كتاب ماين ص ١٢ .

«٣٩» Jus civile .

«٤٠» انظر النشرة الفصلية لجمعية التشريع لسنة ١٩٣٧ المذكورة ، ص ٣٥٦ – ٣٦٧ .

امــراض ادبيـــة

بقلم توفيق اليازجي

استاذ الادب العربي في كلية يافا الارثوذكسية

☆

تمر على الادب حالات هي اشبه شيء بالعلل التي تنتاب الجسم الانساني . وكما ان علل الجسم تنتج عن عدم قيام اعضائه بوظيفتها على الوجه الصحيح ، فيختل لذلك نظامه وتضطرب حالته وتظهر عليه بوادر الضعف والسقم ، هكذا الادب يعتل وينحرف عن مجراه الطبيعي اذا انتابه ما يخل بما يميزه كأدب له ميزات الادب الحقيقي الصحيح الذي يكتب له الخلود والحياة .

من الامراض الادبية ما نسميه داء المناسبات وهو داء له خطورته واثره السيء . اذ فيه يفقد الادب ركناً من الاركان التي يقوم عليها . يفقد العاطفة وما تمتاز به من الصدق والنشاط والروعة ، وبالتالي عنصر التأثير الذي ينقله من الكاتب الى نفس القارىء او السامع . فيه يسخر الاديب قلبه وفكره وقلمه للتعبير عما لا يشعر به ولا يدفعه اليه دافع استثار احساسه وحرك نفسه فشعرت بالحاجة الى الكتابة تلقي بها من اثقال شعورها وما تمخض فيها من فواعل ومؤثرات . وما اقسى على الاديب الحقيقي ان يسخر نفسه فيستنطقها وهي خرساء ويستثيرها وليس ما يحركها وينحت منها وهي صماء . وعندي ان من توفرت عنده صفات الاديب يأبى بل لا يتمكن من ان يجعل من ادبه امرأة مستهترة جمدت عاطفتها وجدبت نفسها من اشواقها وآمالها ، فهي ان قضت غرضاً عابراً عجزت عن ان تشبع الروح وتروي ظمأها وتداعب اهواءها وحنينها .

على ان ما يملكه الاديب من مقدرة على خلق اجواء خاصة تستثيرها نفسه فتفيض بذخراتها وتجعل من غير الموجود واقعاً يحركها ويدعوها الى الكتابة لا يتسنى للكثيرين الذين تقل عندهم الذخيرة الادبية والهبات الفنية فيأتون بكلام هو على كثرته قاحل جدب ، ورغم العناء عليه خائر واه فارغ اجوف . ومن هنا كان داء آخر الا وهو داء التطفل ، واكثر ما يكون متفشياً بين الناشئة القلقين ان تكتب اسماؤهم الى جنب حملة الاقلام والناهضين باعبائها . فقد اسكرتهم القلة التي نهلوا من بحر الادب الفياض ، ولضآلة الاساس الثقافي الذي يرتكزون عليه لا يدركون بليتهم على الادب وبلاء الادب منهم ، فظنوا ساقيتهم بحراً وما عندهم خير ما يقدم . الا ان مهمة الادب اشق مما يتصورون . مهمة شاقة تتطلب ان نعد لها العدة الكافية والثقافة المؤهلة والامكانيات المطلوبة . ثقافة عميقة شاملة ، مرانة ادبية ، حاسة فنية ، ذوق سليم مطبوع ، ذخيرة وافرة تمرع في آفاق متسعة وتتمتع بمواهب ناضجة قوية . فالاجدر بمن فرغت نفسه الا يتظاهر بالجشأ ومن جدبت ارضه الا يتعب بحمل منجل الحصاد فليس لديه ما يجود به وليس عنده ما يقدم . والافضل له الا يتعجل الايام بل ليرب عنده الامكانيات التي تتيح له ان ينزل الساحة ومعه سلاحه .

وهناك مرض المحسوبية في الادب هو في الوقت نفسه سلاح يتخذه المتأدب ليظهر ما عنده فكم تفتح مجلاتنا وجرائدنا

وغيرها من وسائل النشر صدرها الكثيرين الذين تربطهم واصحابها علاقة كثيراً ما يكرن الادب براء منها . فتنشر مقالاتهم مشفوعة بالالقاب الرنانة انتم ادرى مني بها . ولكن هل ذلك تقديراً لادبهم ومواهبهم الفنية ؟ وكم من هؤلاء قد سرهم ان يفرضوا انفسهم على القراء بواسطة التطبيل والتزمير لهم . لذا كثر لدينا المنتوجات الادبية الموسمية او الدورية سريعة الاثر لا ثابتته . وهي لو قيست بمقاييس الادب الفنية لخسرت جزءاً وافراً من نصيبها فيه .

ثم مرض المادية وبه يفقد الادب العنصر الذي يميزه كأدب عال – عنصر السمو وما فيه من جلال وروعة في المتعة الفائنية واستثارة النفس الى القيم الخالدة وشعورها بالانعتاق والتعالي نحوها فتتحرك نوازعها ويعلو بها حنينها الى المطلق ويسمو بها شوقها الى الجمال الاسنى وتجوب في عوالمها المتسعة وترف في آفاق سامية روحانية والفرق بعيد بين قطعة تمر على هامش حياتنا ولا ترتفع عن الامور المبتذلة وقطعة اخرى تتوغل في قرارة نفوسنا وتحرك فيها اجواءها فتتسامى الى ما يعلو بها وترتفع على جناح شعورها المستفز وكوامنها المستيقظة الى عوالم مطلقة ودنى تموج فيها اشواقها وتتجاذب فيها نوازعها وتشرق عليها انوار من التأمل الروحي والانعتاق النفساني .

ثم داء آخر هو بعد الادب عن الحياة وصلته بها . فالادب الحقيقي صورة للحياة الانسانية ومعرض لاحوالها المختلفة والحياة والطبيعة مادة الادب الزاخرة ومعينه الذي لا ينضب . والاديب هو الذي يعرف ان يستمد من الحياة مادة لادبه وعناصر لمقوماته . نفسه وما وهبت من حاسة فنية وشعور مرهف وخيال خصب في تفاعل مستمر مع الحياة ومظاهرها وبواعثها . يغترف منها ويلتقط من صورها فيستيقظ شعوره وتتحسس نفسه . ثم يعرف كيف ينتقي منها العناصر الهامة ويلونها باحساسه ويبث فيها حرارة عاطفته وجمال خياله وسمو روحيته فيفرضها علينا بحلة فنية واسلوب واضح عذب جذاب . ويكشف لنا اسرارها وخفاياها ويصور لنا جمالاتها والوانها . فاذا بنا نشاركه شعوره والعاطفة التي اثارها فينا والتي انما هي جزء من العاطفة الانسانية العامة . ونلمس معه انفعاله وننتقل معه الى الاجواء التي خلقها لنا او نبهنا اليها . ونطمئن الى الفكر الصحيحة القوية التي تدعم عاطفته هذه وتصويره ذاك وتعينها على القوة والبقاء والخلود . واذا بالاديب رسول يتلقى بعبقريته وفنه جمالات الحياة والوانها ويلتقط صورها ويستخرج منها ما له صلة بعواطف الانسان وما يوقظ في نفسه من شعور ووجدان ويثيره الى التأمل والمتعة النفسانية . واذا بالاديب حلقة من سلسلتنا الانسانية واذا بادبه جزء منا – عاطفة في داخلنا ، واداة تنطق بها كوامننا ، وآمال تختلج بها افئدتنا ، واجواء بعيدة سامية ترنو اليها نفوسنا . واذا به حركة في حياتنا يعيننا على فهمها ويتمتع بمواطن الجمال فيها ويوقظ مشاعرنا ويوجهنا الى القيم الانسانية النبيلة .

ويقودنا هذا الى ان نشير الى حالة يضطرب فيها الادب ، وذلك عندما يكون في مرحلة انتقال من طور الى طور يخضع فيه الى مؤثرات جديدة تستلزمها ملابسات الحياة الجديدة ويفرضها ما تجره من مظاهر التقدم واسباب العمران . هذه الحالة نسميها الحيرة في الادب او عدم الاستقرار . فمن بوادر المرض في الادب بعد ان تكون الامة قد انقادت لها اسباب الحياة الجديدة وقطعت شوطها العمراني – ان يبقى ادبها متخلفاً عن عمرها يتسكع على اجيالها السالفة فلا يعبر اذ ذاك عنها ولا يصورها او يعكسها . هذا هو بعينه مرض القديم والجديد علينا ان نعالج منه انفسنا اولا حتى اذا ما صحت صح ادبها وعبر عنها كما هي .

فعلى الاديب مسؤولية وللادب وظيفة ورسالة واثر في الحياة فلنقترب منها بفكر صحيح وقلب سليم وشعور صادق كما تجود هي علينا بهباتها السنية وجمالاتها الرائعة وموحياتها السامية فان اخطأناها فالمرض فينا والخسران علينا .

يافا — توفيق اليازجي

القلب الكبير

للكاتب الروسي « افرتينيكو »

كانت السماوات القاتمة المكفهرة تشرف على الارض .. والثلوج تتساقط عاصفة فتكسو الشوارع جلباباً ناصع البيــاض والناس يتراكضون لشراء حاجاتهم الضرورية – عندما وقف«هيا كن» الضابط العجوز امام غرفته يتطلع حزيناً الى الحشد المنهمك في الشارع ، يفكر ويقول–وقد اغرورقت عيناه بالدموع : « الهي .. اية ليلة هذه ؟ كم من الاشقياء لا يوجد لديهم ما يستظلون به في هذه الليلة .. ليلة الليالي ؟ لا زاوية مريحة! ولا أحلام ذهبية بشجرة عيد الميلاد والدمى المعلقة بها ! آه لو استطعت ان أعمل شيئاً .. ان ابعث الدفء في حياة مسكين بائس .. او أمنح شيئاً لهؤلاء الاطفال الذين لم يذوقوا طعم السعادة .. آه ! ما أكثر البؤس والالم في هذا العالم البارد ! »

وضع الضابط قبعته على رأسه ، ولبس سترته ووضع فروة على كتفيه وخرج والآلام تجيش في صدره ، وراح يموج في تيار قوي من الناس المزدحمين في الخارج ، فوقف في زاوية منعزلة تائهاً في افكاره وعواطفه .. كم يختلف هؤلاء الناس بعضهم عن بعض .. لا يلتفت أحد للاخر ولا يعيره اي اهتمام .. يا للانانية ! هنــاك مئات من الجائعين والمحتاجين الى الدفء والمؤاساة ، ولكن كل واحد لا يفكر الا بنفسه !

وقفت بجانب « هيا كن » كلبة صغيرة يغطي جسمها الثلج ، ودست رأسها بين قدميه ، واستغاثت بهدوء وسكينة ، فانحنى العجوز متأثراً وقال : « مسكينة هذه الحيوانة الشريدة تائهة في الشارع دون ان تجد من يحنو عليها او يرق لحالها ! . تعالي معي سأعطيك طعاماً وسجادة عتيقة تنامين فوقها ! . ومد يده ليربت على ظهرها فنبحت بقوة ، وعضت يده بأسنانها الحادة البيضاء عضة قوية ... وفي هذه اللحظة ارتفعت صرخة غضوب : « لمَ تؤذي كلبتي أيها الخبيث ؟ » وخرج من وراء باب حانوت ضابط يحتدم غضباً ويتطلع الى « هيا كن » الحائر بنظرات تقدح شرراً !

– أردت ان آخذها للبيت لاطعمهــا وادفئها ! فقال الضابط بقسوة وازدراء : « ارى .. انك لست مجنوناً على كل حال ! . أتأخذ للبيت كلبة اصيلة ذات شعر طويل تقدر بمــائة روبل ؟ كان ينبغي ان تأخذ نفسك .. ولكن لا الى البيت بل الى اقرب مستشفى للمجانين او اقرب مركز شرطة يا نذل ! !

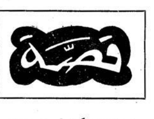
اخذت المارة الدهشة وتجمعوا كالنمل يستطلعون الخبر ، فأخذ يسرع في سيره مخفيــاً رأسه في فروته وهو يفكر في نفسه بألم . كم يحز في النفس ان ترى الالوف من الناس كالاعداء الشامتين ينظرون اليه كشيطان عربيد !

ذاك مسافر اعزل اصطيد في هذا الجو المكفهر .. الرياح تزحف في شقوق ملابسه فتجمد جسمه الشقي .. ان عواء الذئاب البعيدة قد علا كأنهــا قد شمت رائحة الفريسة .. سيكافح ، ولكن ... انه يغرق في كل خطوة في الثلج الى ركبتيه ! . كل ذلك لانه شقي بائس لا يملك نقوداً ليستأجر عربة او حصاناً ينقله ، يحث السير مجمعاً نفسه في ثيابه الممزقة علها تقيه البرد الشديد! وفجأة مسح « هيا كن » دمعة تدحرجت عــلى خده وانزوى في جانب مقفر من الشارع ، حتى اذا مر هذا المسكين الذي يحاول ان يخفي نفسه في ملابسه اقبل عليه ودس في يده ثلاثة روبلات دون ان ينبس ببنت شفة ، فرفع الرجل رأسه وحملق في «هيا كن» وقال : « ما معنى هذا ؟ ! »

– لا شيء ، ارى انك ستقطع مســافة طويلة ، ولاحظت انك لا تستطيع ان تؤجر حصاناً ... ارجوك ان لا تشكرني ! فقد عملت مــا استطعت عليه . فزمجر الغريب قائلا : « كيف تجرأت ايها الوغد ! ! ؟ ألا تعرف من انا ؟ ! ستقضي ليلتك في السجن جزاء على هذه الوقاحة ! . وفجأة ظهرت ساعته على صدره المزين بالجواهر المتنوعة والكواكب الذهبية والاوسمة التي اخذت تتلامع في ضوء مصابيح الشارع ! ! فتمتم « هيا كن » : « آسف جداً ! »

– مخمور .. اجوف كالطبل .. ولّ ! ..

اشتد عصف الريح ، وظل « هيا كن » يسير عــلى غير هدى حتى وجد نفسه في شارع مزدحم ، وهو لا يزال يردد : « مــا اكثر الاطفال–أزهار وجودنا كما يسميهم الشعراء– الذين يجوبون الشوارع وينظرون بشره وحسرة الى نوافذ الحوانيت الفخمة ، ولكنها ليست لهم واأسفاه ! » وشعر بغصة كادت تخنقه



ترجمها عن الانكليزية مرتضى شرارة

عندما رأى طفلة امام حانوت عصري مؤثث تتفرس بالحلوى والمربيات المعروضة ، فأقبل عليها وامسكها بيدها وقال : « مسكينة ايتها الطفلة ! تعالي معي ، سأطعمك وادفئك هذه الليلة . . » فصاحت الطفلة مذعورة : « ماما . . ماما ! . » فصرخت امرأة كانت خارجة من حانوت مجاور لبيع القبعات النسائية : « اتركها . . ايها العجوز الدنيء . . دعها والا أهويت على رأسك بمظلتي هذه ، كيف تتجرأ على خطفها ايها الوغد ؟ » – وقال أحد المارة : « حقاً ان وقاحة هؤلاء الخاطفين تذهل ، كيف يخطفون ضحاياهم في شارع مزدحم بألوف الناس ! ؟ »

وقال « هياكن » : « اؤكد لك بأنني ما قصدت سوءاً ، ما قصدت غير ايوائها من هذا الثلج الذي . . . فصرخت السيدة وهي ترتجف غضباً : « انت ؟ ! ايها الاثيم ! ؟ تعالي يا « نادين » يجب ان لا تسمعي ما يقول هذا السافل ! »

العواصف الثلجية لا زالت تزداد جنوناً و « هياكن » –ذو القلب الكبير – يسير على الرصيف وهو يتمتم : كم اتمنى ان ابعث الفرح في الافئدة المعذبة ، واخفف من قسوة الالم والفقر في هذه الحياة الرعناء . . . ولكن الفقير الحقيقي يتكابر ويخفي خرقه البالية ، يجب ان يكون الانسان رقيقاً لا يجرح عواطف الفقير ، وان لا يحسن مباهاة امام الاخرين .

في هذه الاثناء مر رجل طويل القامة يرتدي فروة ممزقة مربوطة بحبل غليظ ، وقبعة تمزقت مقدمتها ، وحدق في وجه « هياكن » العجوز ، فقال في نفسه متأثراً والرقة تطوق كل كلمة من كلماته : « واخيراً ! . . الطقس ردئ ، أليس كذلك ؟ » فاجاب الغريب : « تباً له . ! » فقال « هياكن » بحذر ولباقة « يبدو لي انك قد نسيت ان ترتدي ملابس دافئة عندما تركت البيت ، واظن انني ان ادفئتك عشرة روبلات قضيت حاجتك . ها ؟ » فقال الغريب : « لا ! الاحسن ان تعطيني سترتك . . اخلعها حالا ! » فقال « هياكن » متلعثماً : و . . و . ولكن . . هاك فروتي خذها يا ولدي . فقال : واين الروبلات العشرة ؟ اعطنيها يا عمي . والافضل ان آخذ المحفظة كلها ! أأرجع لك ساعتك ؟ ! اتقول انها ليست ذهبية ؟ ، وماذا يعمل بساعة فضية أبله اضحوكة مثلك ! الى اللقاء . . . ليتني ألقى عشرة في مثل بلاهتك كل يوم ! ! !

السماء لا زالت تزمجر ، والعواصف الثلجية الهوجاء تشتد ساعة فساعة ، ورأى « هياكن » عجوزاً يسير لوحده بسرعة على الرصيف ويتمتم لوحده بكلمات مبهمة وقد وضع على جسمه جلد شاة شده على خصره بحبل ليفي ، وفي رجليه حذائين اكل الدهر عليها وشرب ، جاءه طفل صغير – يرتدي سترة امرأة – يرتجف من البرد وقال : « عمي . . اعطني شيئاً للعيد ! » فصاح « هياكن » : « للعيد . . ؟ ! خذ هذا . . . » واقبل على الطفل وقبله بشجاعة وحنان ، وكان هذا الاحسان الوحيد الذي أرضى ضمير « هياكن » ذي القلب الكبير في ذلك اليوم ! كاد الطفل يتجمد من شدة البرد ولكن حنان قبلات هذا الغريب العجوز جعله يشعر حالاً بالدفء والهناء . . بالحنان . . بالسعادة . . !

بغداد — مرتضى شراره



مجهول من أصحاب المقامات

بقلم
يوسف يعقوب مسكوني
ملاحظ مكتبة ديوان
وزارة المعارف ببغداد

●

اشتهر في القرن السادس الهجري رجال نبغوا في صناعة الطب وتحضير الادوية ومعالجة امراض الناس بالطرق والعقاقير التي كانت متبعة في ذلك الزمان ولم يكن الطبيب يقف نفسه على صناعة الطب فقط بل كان يتقن صناعات اخرى في مختلف علوم الادب والادب وكان اكثر الاطباء والحكماء في العهود العباسية المختلفة يتقنون صناعة الشعر والادب من نظم ونثر فكانوا ينافسون بذلك الشعراء والادباء ايظهروا امام الملوك والخلفاء والامراء بمظهر العالم الاديب ليلموا بكل ما يحيط بدار الخلافة والسلطنة والامارة من علم وادب فيبارون العلماء والادباء بصناعاتهم ارضاء للخليفة او الامير الذي ينتمون اليه من باب الخدمة والطبابة . وهذا يحيى بن سعيد بن ماري البصري الملقب بابي العباس احد اولئك الاطباء الحكماء الادباء ، فقد مارس مهنة الطبابة ومعها مهنة السجع في النثر فنظم ستين مقامة على غرار مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري . وقد ورد ذكره في عدة كتب كان مؤلفوها من معاصريه ومن بعدهم . ذكره القفطي جمال الدين في كتابه اخبار العلماء باخبار الحكماء حيث قال : « يحيى بن سعيد بن ماري ابو العباس الطبيب النصراني المعروف بالمسيحي صاحب المقامات الستين عالم بالطب والادب يطب بمدينة البصرة في زماننا ادركنا من روى عنه وهو ابو حامد محمد بن محمد بن حامد بن آلة الاصفهاني العماد ورأينا من الرواة عنه البصري المعلم الحصيني وكان يروي عنه مقاماته وكان للمسيحي هذا معرفة بالادب صادقة وربما امتدح بالشعر اجلاء الواردين على البصرة وكان اصله من الطيب من موضع يقال له الدوير وكان فاضلا في علم الاوائل وعلم العربية والشعر يرتزق بالطب والانشاء وصنف المقامات الستين واحسن فيها وكان ابوه قد تنقل عن الدوير الى البصرة واولد ولده هـذا بها . وتوفي ابو العباس يحيى بن سعيد بالبصرة اعشر بقين من شهر رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة ومن شعره في الشيب :

نفرت هند من طلائع شيبي ... واعترتها سآمة من وجومي
هكذا عادة الشياطين ينفرن اذا ما بدت نجوم الرجوم

وورد ذكره ايضاً في مختصر خريدة القصر في شعراء العصر امني المعروف برضائي زاده المتوفى سنة ١٠٣٩ هـ ، (١٦٢٩ م) وهو مخطوط في متحف برلين . وفي مختصر تاريخ الدول لابن العبري حيث زاد على القفطي بقوله : والمرجح انه كان نسطوري النحلة وعرّف ان الطيب بلدة بين واسط وخوزستان من موضع يقال له الدوير . وذكره في كتابه سلسلة العرب فقال انه كان مقدماً عند الخليفة الناصر لغزارة علمه . ومما قاله رضائي زاده صاحب مختصر خريدة القصر انه قد عمل ستين مقامة على منوال المقامات الحريرية قال ورأيتها معه و١٠ قصر فيها . وقال ياقوت الحموي انه يحيى بن يحيى بن سعيد وهذا تحريف على ما اعتقد وقال عنه انه كان اديباً شاعراً عارفاً بالطب عالماً بالنحو واللغة متفنناً وكان يتكسب بالكتابة والطب ويتمدح الاكابر والاعيان وقال عن مقاماته انه احسن فيها واجاد . وروى له شعراً وهو :

نعم المعين على المروءة للفتى ... مال يصون عن التبذل نفسه
لا شيء انفع للفتى من ماله ... يقضي حوائجه ويجلب انسه

واذا رمته يد الزمان بسهمه   تخذ الدراهم دون ذلك ترسه

وله ايضاً : —

لاموا على صب الدموع كأنهم   لا يعرفون صبابتي وولوعي
كفوا فقد وعد الحبيب بزورة   ولذا غسلت طريقه بدموعي

ونقل له ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ولقبه بالنصراني البغدادي في حين ان منشأه كان بالبصرة ولقب بالبصري كما نوهنا. وقال فيه الصفدي انه ما اجاد ولا قارب الاجادة والمقامات الجزرية والمقامات التميمية خير منها وما قاربتا الحريري . اما ابن كثير في كتابه البداية والنهاية فقد قال فيه انه كان اديباً فاضلاً بليغاً له اليد الطولى في اللغة والنظم ومن شعره : —

غناء خود ينساب لطفاً   بلا عناء في كل اذن
ما رده قط باب سمع   ولا اتى زائراً باذن

وذكر له الاب لويس شيخو اليسوعي في كتابه شعراء النصرانية ترجمة ضافية مع جملة ابيات من الشعر نقل عن العماد البيت الآتي : —

واذا نطقت فانت لفظ مقالتي   واذا سكتُ فانت سر خاطري

ومما يروى له في صداقة الصالحين الابيات التالية : —

عدنا وعاد الانس والافراح   واضاء في مشكاتنا المصباح
وجرت منارته يفوح اريجها   كالروض تم بعرفه الارياح
وعلى العفاف قد انطوت احوالنا   حباً بتقوى الله وهي رباح
لا عيب فينا غير حسن فعالنا   جهرا وهل يهوى الفساد صلاح
تأبى المحبة بالفساد ومالها   عمن تجلى بالصلاح براح
كم عاشق قد ذل بعد فساده   والعز في اهل التقى وضاح

وله مجموعة من الالغاز الظريفة فمن الغازه في الجسم والروح قال : —

إلفان لم يدرك حقيقة واحد   سوى الله والثاني لدى الحس ظاهر
يفارق ذا هذا ويبقى وذا   غليظ تراه في الوجود النواظر
وذاك قديم في الحدوث وذا له   حدوث قريب والمعاند كافر

ومن الغازه في القبر قال :

رفيقان منقول وآخر ثابت   وكل لكل لازم واجب القهر
يحمل هذا ساعة ورفيقه   يضمن ما يبقى الى زمن الحشر
تحف بهذا الناس من كل جانب   الى ذاك حتى يغنموا غاية الاجر
ويستودعوا ما اثقلوا منه ظهرهم   لآخر حتى يأذن الله بالامر

ومن الغازه في الليل والنهار ايضاً :

وضدين هذا مثل هذا تعاقبا   وكم لهما عند الانام حقائبا
فهذا بصير لا يضل عن الهدى   وهذا عمي ليس يبصر ذاهبا
تحركنا في ذا وفي ذا سكوننا   وطوراً ترى سعيا وطوراً تجانبا
وفي ذين آيات لاهل النهى على   جلالة رب العرش تبدي العجائبا

وممن ذكره كذلك المؤرخ الفقيه ابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ بوفيات سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وحذا حذوه صاحب النجوم الزاهرة وهو مغلوط لان المؤرخين الذين ناصروه ومن نقل عنهم بعدهم ذكروا ان وفاته كانت سنة ٥٨٤ هـ ومن الذين ذكروه مؤخراً الدكتور احمد عيسى بك صاحب معجم الاطباء وهو ذيل كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة الذي سها عن ذكره وذكر عدة مصادر عنه ومنها عبد الجمان للعيني وقد كتب الاب انستاس ماري الكرملي العالم اللغوي الشهير وعضو مجمع فؤاد الاول للغة العربية مقالاً في المجلد الثالث من مجلة المشرق الصادر سنة ١٩٠٠ مقالاً بعنوان المقامات النصرانية لابن ماري قال فيه « لابن ماري كتاب مقامات تعرف بالمقامات المسيحية وهذا الكتاب لا يوجد منه اليوم على ما حققناه الا نسخة واحده وذلك في خزانة كتب جامع الحيدرخانة في بغداد وهي نسخة قديمة كان قد اهداها الى هذا الجامع النصراني الوجيه المرحوم فتح الله عبود في ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٠١ هـ . اى (١٨٨٣ م) حينما كان عضواً في مجلس الادارة وكان العلماء يومئذ قد اجتمعوا طلباً لانشاء خزانة كتب عمومية تكون في الجامع المذكور لاستشارتها عند الحاجة . وكانوا قد طلبوا من اعيان الزوراء ان يتحفوا المكتبة الجديدة بما لديهم من التآليف المفيدة وكان من جملة ما تبرع به فتح الله افندي هذا الكتاب النفيس وهو قديم الكتابة من عهد مؤلفه .

وخط السفر وان كان جلياً فان اغلبه غير منقوط كما كان يفعله الخطاطون بادي ذي بدء وزد على ذلك ان هذا الكتاب قد وقع في الماء حتى انه تتعسر قراءة بعض الفاظه . غير انني استعنت في الاماكن المبهمة العويصة بالشيخ الامام المشهور محمود شكري الالوسي لحل معضلاته وفك طلاسم معقداته وبذلك زال جانب عظيم من مشكلاته ومبهماته . ولا ينقص هذا الكتاب الا ورقة واحدة هي عبارة عن نصف المقدمة . اما كيفية البلوغ الى الحصول على مستهلها فان فقيد العلم واللغة نعمان الالوسي كان عثر في اثناء تجواله في البلاد على المقدمة كلها وبعد المقابلة وجدها تطابق بقية

مقدمة الكتاب الموجود في بغداد مع زيادات في المقدمة التي في يديه . ولما كان قد علم بأنني قد عنيت بنسخ هذا الكتاب دفع الي تلك المقدمة لكي يكمل بذلك كتاب المقامات الذي يدور الكلام عليه . اما منزلة هذا الكتاب فما يستطيع ان يعرف كل واحد سمو علوها من قراءته للمقدمة وذكرت في كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة المعروف بكاتب جلبي باسم المقامات المسيحية لابي العباس وفي كتاب الادب لابن عباس ذكر ليحيى بن سعيد بن هاري وصحتها ماري وهو اسم مشهور بين نصارى النساطرة لانه اسم المبشر الذي دعا الى نور الانجيل الكريم من سكان بلاد العراق والجزيرة . ثم يذكر لقبه ومهنته ووفاته . ثم قال الاب الكرملي ان نعمان افندي الالوسي صاحب التآليف الشهيرة قال لي بعد ان طالعها اجاد كل الاجادة . اما ما نقلته عن الاستاذ بهجة الاثري الذي يملك نسخة بخط يده من هذه المقامات فهو : « نقلت هذه المقامات عن نسخة كانت في جامع الحيدرخانة في خزانة كتب داود باشا عثرت عليها في كتب هذا الجامع درستها فوجدتها قد كتبت بعد وفاة المؤلف بتسع وخمسين سنة كما يظهر مما جاء في آخرها لا في عهد المؤلف اذ جاء في آخر الكتاب ان الفراغ منه كان ضحوة يوم الاحد غرة ربيع الآخر من سنة ٦٤٨ هـ . فالفرق واضح ». اما النسخ الموجودة من هذه المقامات فنسخة عند الاب الكرملي ونسخة عند الاستاذ بهجة الاثري بخطه الجميل وقد شاهدتها مع تعليقاته في حواشيها وهو مزمع طبعها . ونسخة في الموصل عند الاب سليمان صائغ جاء ذكرها في كتاب مخطوطات الموصل للدكتور داود الجلبي حيث يقول انها نسخت عن نسخة قديمة مؤرخة سنة ٦٤٨ هـ . وهي هذه النسخة المذكورة آنفاً . اما نسخة مكتبة فينا في النمسا فقد قال فيها الاب لويس شيخو ووافقه الاستاذ الاثري انها ليست لابن ماري المسيحي وانما هي لغيره من المسلمين كما يظهر من ديباجة المقدمة وخالفهما الاب الكرملي حيث قال في مقاله المنشور في المشرق انها له . هذا ما حصلنا عليه من المعلومات عن مقامات يحيى بن سعيد التي لو طبعت لاضافت حلة قشيبة على الادب المنثور والدر المنظوم .

بغداد — يوسف يعقوب مسكوني

الاشتراك في الاديب

لسنة ١٩٤٦

◆

— خفضت قيمة الاشتراك في الاديب فأصبحت كما يلي :

في سوريا ولبنان : ٩ ليرات لبنانية ترسل حوالة بريدية

في الخارج : جنيه مصري يرسل حوالة خالصة المصاريف على احد مصارف بيروت

(وكل حوالة تردنا من الخارج على غير ما ذكرنا تهمل)

— آخر موعد لقبول طلبات الاشتراك في سنة الاديب الخامسة (١٩٤٦) هو اول كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٥

— لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها من شهر كانون الثاني (يناير)

— لا تجدد الادارة اشتراكات لا يطلب اصحابها تجديدها

— كل طلب للاشتراك غير مرفق بالبدل يهمل .

— لدى الادارة مجموعات من الاديب تطلب بالثمن التالي :

السنة الاولى	١٩٤٢	٣٥ ليرة	او ٤ جنيهات انجليزية
« الثانية	١٩٤٣	٢٥ «	او ٣ «
« الثالثة	١٩٤٤	١٥ «	او ٢ «
« الرابعة	١٩٤٥	١٥ «	او ٢ «

ويحسم ٢٠ ٪ لمن يطلب الثلاث مجموعات الاولى معاً

★

ادارة الاديب : شارع الاحرار ، غربي ساحة الدباس

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨ بيروت — لبنان

صباح

☐

يا صباح الاغراء ، جدْ بي التوق   على بغتة الصباح المطل
قبلُ لم اكتحل بمرآك، لم امرح وراء الظنون في وهم وصل
وتمرين انت اكداس ورد   تركت للطريق طيب المدل
عند عمق العينين ينزلق الطـرف سأات العينين نظرة مهل
شغفني منها على الرونق الاسود صوت ابح يهمس من لي
وتمليت وجهك الطفل حسنـاً مترفاً قر في اسارير طفل
جاع بي هاجس التملك   عفو الطهر سيري على العبير وظلي
فوق مرمى الاشواك في العـالم الاثم فوق التفاتة من مقل
سرحة العمر دون مغناك ليل   فابسمي للضحى وللنور هلي

☆

صلاة

☐

ربي ، سل الاطياب عن   روضي ، وسل اوراق وردي
بي منك شيء يسكب الآمال   في ثغر وخـدّ
وعلى الخمائل من روائك   لون اغراء اجد
ألقـاه رقراقـاً يهوّم   بالرواء المستبد
فاذا تميل مع الخريف   غمـامة المحل الاشد
ألقى الربيع على ذوائبها   يهدهـد بعض جهدي
وأغيب في الاغوار حـيران   الخطى في ليـل سهد
مـا للصباح وقبل لم   امسح بغير سناه رغـدي
يزور عن وعد لهـا   ربي سألتك بعض وعد

☆

الى ثغر

☐

يا ثغرها ، يا غربة الكوثر   اغنى مراميك افترار طري
ويدّعيك الشوق في رغبة   ظلت نداء الهاتف المبكر
تندى سماحاً مترعـاً بالهوى   حران لم تأثم ولم تقطر
ابيع عمري بالاريج الذي   ضاع حواليك ولم تسكر
يا ثغرهـا يا منية حلوة   مسحورة الانداء كالعنبر
ستمطر الديـمة يوماً على   ليل لنا غض وفجر سري
أكاد ألقـاك على خاطري   رؤيا تهز الان في المضمر
ما باح عني قبل غير الشذى   غداة همّت شفة المفتري
يا ثغرها عن اي عاج ترى   تنشقّ عن اي هوىً انور
عن اي غيب مترف اروع   يغري العقيق السمح بالمرمر
لنا غدٌ انت تبـاشيره   فاضحك غناء في فم الاعصر

صلاح الاسير

النقد الاستاطيقي واثره عند العرب

بقلم الآنسة روز غريب

☆

النقد الاستاطيقي نقد للفن مبني على اصول الجمال او مبادىء الاستاطيقي . يعنى باكتشاف مواطن الحسن في الاثر الفني استناداً على مبادىء للجمال تجمعت على العصور وتبعثرت في كتب الفلسفة وكتب البيان بين قديمة وحديثة ، وكتب علم الجمال الذي كوّن في المدة الاخيرة علماً قائماً بنفسه واتخذ عند الغربيين لقباً خاصاً : الاستاطيقي (١) وهو نقد ينحصر في موضوع جمال الفن وتأثيره في النفس بقطع النظر عن الفنان وشخصيته وعصره وعرقه وما أشبه هذا من نقد تاريخي . وهو أشيع فنون النقد وربما كان اقدمها — وهو ايضاً ادقها رغم شيوعه اذ ليس له كما للنقد العلمي قواعد مقررة — فهو يستند على اصول الجمال وليس للجمال اصول علمية ثابتة . وهو مع هذا اهم فنون النقد التي عرفها العرب لانهم مع عنايتهم بالنقد اللغوي العلمي لم يعرفوا النقد البيئي على طريقة تاين ولا نقد الشخصية على طريقة سانت بوف الا فيما ندر .

وهذا النقد يفترض ان الفن والجمال صنوان او — على الاقل — ان الجمال صفة لازمة للفن وبهذا يستطيع تطبيق احكام احدهما على الآخر . والواقع ان للجمال في الكون مصدرين لا ثالث لهما : الطبيعة والفن . اما وجود الجمال في الطبيعة فلا يختلف فيه اثنان واما جمال الفن فقد تصدى بعضهم لمناقشته لكن اكثرية الباحثين قرنوا الفن بالجمال بدليل ان الفن الذي نقصده دعي منذ نشأته الفن الجميل وان كلا الفن والجمال ينطبق عليهما تحديد فلسفي واحد : ما يثير الاعجاب واللذة بقطع النظر عن غاية او منفعة عملية سواء ذلك في الجميل ام في معاين الجمال . كلاهما معجب لذاته .

هناك نتيجة ينتهي اليها كل من له المام بعلم التاريخ — اعني خصوصاً تاريخ الفن : ان التاريخ باسره سلسلة من المد والجزر او مظاهر الثورة ورد الفعل سواء في ذلك تاريخ الفن ام تاريخ السياسة ام العلم والادب . فكل مذهب يقوم على انقاض سابقه الذي دبت فيه عوامل الوهن والفناء فيخالفه ويتجه اتجاهاً مغايراً له . هكذا قامت الدكتاتورية الحازمة على انقاض الفوضى الديمقراطية . وهكذا قامت الرومنطيقية الحرة على انقاض الكلاسيكية الجامدة . وهكذا قامت نظرية الفن للفن على انقاض الفن التوجيهي الانساني او فن الدعاية . والرمزية على انقاض الوضوح او الحقيقة ، كما تقوم عندنا اليوم مذاهب غربية الاصل على حساب اخرى شرقية مندثرة . كل هذا يجري قياسياً كالمد والجزر ، متسقاً كنبضات القلب ، مجارياً سنن الطبيعة التي تأبى الا التطور والتغير ، مجارياً طبيعة الانسان الملول الميال الى الهدم والانتقال من جهة الى عكسها .

لكن هذه الانقلابات المستمرة في تاريخ الفن ليست انقلاباً بالمعنى الحقيقي ولا تطوراً واضحاً وانما هي توسع وامتداد في ناحية ، وانكماش في ناحية اخرى وتغليب عنصر على آخر من عناصر الفن او اركانه . فكل مذهب جديد يحرر الفن من مبدأ ما او يزعم تحريره منه ليربطه بمبدأ آخر او مبادىء اخرى . فيهمل بدوره بعض الميزات ويعزز ركناً على حساب الآخر ويمعن في شرحه

(١) يعد مؤسس هذا العلم ألكسندر بومجارتن الالماني (١٧١٤-١٧٦٢)

والتفنن فيه . فالرمز مثلاً مبدأ قديم لكن الرمزيين العصريين أبرزوه في صورة عصرية جديدة وبالغوا في تفصيله وتوسيعه وتحليله . ولو استعرضنا تحديدات الفن والجمال عند القدماء والمحدثين لوجدنا كلاً منها يعزز فيه ركناً او صفة او ينظر اليه من زاوية خاصة محدودة ويفسره حسب مزاجه . هكذا كان الجمال عند افلاطون وعند هيجل وروسو وتولستوي وغيرهم . « الحقيقة والصلاح » . وكان عند فناني اليونان وبعض فلاسفتهم : الوحدة والانسجام. والتوازن والبساطة . وعند غرانت ألن وهو باحث عصري : ما يثير النشاط مع الهدوء . والراحة وانبساط النفس . والجمال عند ناقد عصري آخر – آلان Alain – هو السكون والاتزان حتى في مواقف الهياج وعند ليبنتز : وحدة مع تنويع . وعند كانت Kant ما حاز اعجاباً عاماً شاملاً دون سابق صورة او تصميم في ذهن المتذوق . وهو صورة اللامتناهي في المتناهي او لمحة الكمال في غير الكامل . وهو ما ينال الاعجاب مجرداً من الغاية وحراً من المثال او القاعدة – هكذا نجد كانت قد أعلن حرية الفن من التقليد ومن الغاية النفعية .

ولو ألقينا نظرة عامة على هذه التحديدات لوجدنا كلاً منها مصيباً لا كل الاصابة مخطئاً لا كل الخطأ ، لانه نظر الى الفن او الجمال الفني من جهة واحدة واغضى عن وجوه اخرى ولانه حاول تقييد الفن بصفة معينة وهو يأبى التقييد والحصر . فالفن قد يكون وحدة وقد لا يكون . وقد يكون صلاحاً وفضيلة وقد لا يكون . وهو احياناً حقيقة واحياناً كذب . اذ ليس هناك تعريف مرن مطاط كتعريف الجمال والفن . فالجمال وحدة وهو ايضاً تنويع وابراز . وهو ارتباط الاجزاء واحياناً تناثرها . والجمال وضوح وهو ايضاً غموض . وهو طبعية وسذاجة وهو ايضاً تفنن وصنعة . وهو بساطة اغريقية وهو زخرف شرقي . وهو تناسب وانسجام وهو شذوذ واغراب . تماثل وتضاد ، حركة وسكون . فكيف نوفّق بين هذه المتناقضات . والجمال مثالية والجمال واقعية . ذاتي وموضوعي . فكرة ولا فكرة ، فردي وجماعي . مهزلة ومأساة . وصف العظمة والجلال وايضاً وصف ادق الاشياء والطفها وأحقرها . وصف التسامي والمثل العليا على طريقة ابن الفارض وكورنيل وتنيسون . ووصف القبح والشرور والميول الخاطئة على طريقة ابي نواس وبودلير .

كان الفن عند الكلاسيكيين تقليداً لليونان وتقيداً بالاعتدال والبساطة والوضوح والموضوعية والتحليل النفسي والمواضيع الجليلة المجردة – وكان نقيض ذلك عند الرومنطيقيين : اعراض عن تقليد القدماء وامعان في تصوير العاطفة المضطربة والنزعة الفردية الذاتية مكان الموضوعية وكان وصف المحسوسات بدل المجردات والزخرف والمبالغة عوض البساطة والاعتدال ووصف الطبيعة الخارجية عوض النفسية الداخلية . ولكن اية المدرستين اصابت وايتهما اخطأت ؟ لقد ادت كلتاهما رسالتها وجاءت كلتاهما بروائع من الفن خالدة مع ان لكل منهما نظرة تغاير نظرة الاخرى .

وكان الفن عند البرناسيين ثورة على الرومنطيقية : كان فناً للفن لا معرضاً للعواطف وكان عودة الى اساطير الاغريق وصفاء فنهم واعراضاً عن التأثيرات والتقاليد المسيحية ولهذا تقيد بالنحت والصقل وصعوبة النظم وسعى الى الموضوعية القليلة التأثر واتخذ شكل القالب المنحوت المنسجم الالوان المتآلف الخطوط الذي تشيع فيه فكرة ما .

وكان الفن عند الواقعيين والطبيعيين اجتماعياً توجيهياً متأثراً بالعلم ومعرضاً للحقائق والنظريات العلمية الواضحة . وعكس هذا عند الرمزيين الذين مالوا عن الحقيقة الى الرمز وعن الوضوح الى الغموض وعن المادة الى الروح وأعرضوا عن الصقل والنحت الفني الذي اعتمده البرناسيون فحرروا الشعر من قيود الصنعة والقالب حتى اباحوه حراً طليقاً من الاوزان والقوافي لكنهم قيدوه بالرمز واحاطوه بالاسرار والحجب الروحانية والصور والمقايسات ملفوفة في وسط موسيقي غنائي شديد الايحاء – ينقل المعنى بواسطة الاصوات ورنتها والصور وملابساتها – كأنه العزف الذي يرافق الغناء .

وكأنما الفن والجمال آفاق واسعة فسيحة الارجاء لا يستوعبها النظر دفعة واحدة . وكل مذهب ، وكل عصر ، يحوّل نظره الى ناحية واحدة او بضع نواح يظن انه يرى فيها الجمال كله وهو انما يرى جزءاً من آفاق لا حد لها او يفتح صفحة من كتاب كثير الصفحات ويكشف الغطاء عن محاسن منسية فيظنها الناس جديدة وهي غير جديدة . هكذا كل تحديد للفن – حسب المذاهب التي عددناها – جزء من الحقيقة لا كلها . فالجمال كل هذا ، لكنه لا يتقيد ضرورة بكل منها . ولعل افضل ما نحدد به الجمال تحديداً ذاتياً غير موضوعي : انه مصدر اعجاب وتأثير وارتياح ونشاط هادئ . واستحسان عام شامل . اي ان المرجع الاخير للحكم فيه هو الذوق العام (المثقف خاصة) . وأهم صفة نقيده بها انه شخصي

فردي يأنف من التقليد وهو بهذا المعنى حر من اية قاعدة سابقة واية غاية لاحقة .

وأين يقع الشعر العربي القديم من هذه المذاهب الشعرية ؟

الشعر العربي — ككل شعر آخر — يتضمن ميزات الفنون العامة بمقادير متفاوتة . لكننا لو اردنا نسبته الى احدى مدارس الادب لقلنا انه اقرب الى الرومنطيقية ثم شقيقتها البرناسية منه الى غيرها — مع انه لا يخلو من ميزات اخرى بين كلاسيكية ورمزية وواقعية . الشعر العربي رومنطيقي لانه غنائي كشعر الرومنطيقيين ، ولانه لم يتأثر مطلقاً بأدب اليونان ولم يعرف قوانين شعر المأساة الكلاسيكي ولا المأساة نفسها كما شرحها ارسطو في كتابه (الشعر) Poetica . رومنطيقي في فرديته وشغف الشاعر بتصوير ذاتيته وعواطفه وبطولاته ومفاخره . رومنطيقي في تأثره بالبيئة الطبيعية واعتراف تشابيهه واستعاراته من مظاهرها واحوالها . رومنطيقي في ميل الشاعر الى الغلو والاندفاع مع العاطفة في وصفه ومدحه وهجائه ورثائه وحبه ونفوره . وفي نزعته الغنائية الموسيقية وميله الى الالفاظ البراقة الرنانة وكثرة المجاز والتخييل . بل ان الرومنطيقية الاوروبية استلهمت خيال الشرق وصوره حين نشوئها كما نرى في « شرقيات » هوغو وشعر خلفائه من رومنطيقيين وبرناسيين ، حين شاع الادب الاجنبي Exotique عندهم على اثر ترجمة التوراة والف ليلة وليلة . لكن الشعر العربي ايضاً كلاسيكي موضوعي حين تذوب شخصية الشاعر في القبيلة او ينحصر كلامه في الممدوح او البيئة . برناسي في شغفه بالشكل المصقول والقالب المنحوت وولعه في ابراز الخطوط والالوان والتعابير المادية المحسوسة . رمزي في ما نراه فيه احياناً من ايحاء لفظي وابراز المعنى بواسطة الاصوات والجو الشعري . هكذا تحس السقم في نغم قصيدة « عروة وعفراء » وان لم تتدبر معانيها وتحس الطول والملل في بيت امرىء القيس مخاطباً الليل :

« ألا ايها الليل الطويل الا انجل ! »

وان انت لم تعرف معناه . وتحس القوة الصاخبة في رنة الالفاظ وازدحامها في قول المتنبي :

« بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم »

والخشونة الفطرية في بيت الشنفرى دون ان تفكر في ما يعني :

« دعست على غطش وبغش وصحبتي سعار وارزيز ووجر وأفكل »

*

كان التطور الاخير الذي حملته الرمزية الى الشعر انها عادت به الى علاقته القديمة بالفن وربطته ربطاً وثيقاً بالموسيقى والايحاء اللفظي والتصوير المادي المحسوس الذي يثير الحلم . ولم يكن هذا منها سوى رد فعل على الادب التوجيهي وعلى واقعية العهد العلمي في منتصف القرن التاسع عشر . وقد ادى هذا الى سيادة الاساليب في العصر الحالي وطغيانه على الفكرة دون ان يمحوها . وطغيان الفن على الطبيعة في الادب ، وعودة الاساليب البيانية القديمة بشكل جديد . وهكذا يتلاقى القديم والحديث ، والشعر العربي القديم بالشعر الغربي الحديث ، لان الشعر العربي هو في الدرجة الاولى اساليب وقالب ، هو موسيقى وتصوير محسوس مادي كثير الخيال والوشي والتأنق تسود فيه الحركة والاحساس والصور والاشكال والخطوط والالوان والاصداء والاوزان . وليس عيبه في سيادة القالب بل في جموده وتقليده ، لان الفن هو في الحقيقة قالب ثم فكرة — والادب العربي باسره من شعر ونثر تغلب فيه النزعة الفنية اي الموسيقى والتصوير . ولكن ما علاقة الشعر عند العرب — الذي يعد خلاصة فنهم — ما علاقته بنقدهم الفني وما ماهية هذا النقد ؟

النقد العربي مبني على العبقرية الفنية عند العرب مستلهم من آثارهم يستمد احكامه من درس القدماء الخالدين وقلما نجد فيه تأثراً واضحاً بأدب اليونان او غيرهم . وكانت مهمته عدا الشرح والتفصيل والموازنة ووضع القوانين والاحكام البيانية ، تنبيه الادباء الى اخطائهم يحاول ان يبني لهم اسساً ثابتة يأمنون معها شر العثار وهكذا حاول النقاد غير مرة ان يردعوا الكتّاب عن التزام السجع وقبّحوا الافراط في البديع كما قبحوا السرقة والتكلف والتعقيد . وكما كانت لهم اخطاء وعيوب كانت لهم حسنات وآراء قيمة ظلت طوال العصور هداية للمتأدبين وللنقاد المتأخرين .

وليس من شأني ان اعرض لتاريخ النقد عند العرب ولا لانواع نقدهم الفني من بياني وغير بياني لان ذلك خارج نطاق بحثي . وانما اشير الى أهم المبادىء الفنية او الاستاطيقية عندهم وهذه — اذا قابلناها بما عند الغربيين من اصول استاطيقية رأينا انه ما من مبدأ نمر به عند هؤلاء الا وله اثر قوي او ضعيف في النقد العربي كما نرى فيما يلي :

١ — عرف العرب مبدأ الوحدة في ادبهم وفي نقدهم ، مع ان ذكر الوحدة لم يرد عندهم بصورة صريحة مباشرة كما في قوانين

ارسطو . عرفوا من قوانين الوحدة تلاؤم الاصوات وتلاؤم الالفاظ وتلاؤم المعاني وحسن الارتباط بينها . قال ابن الاثير مشيراً الى ارتباط المعاني : وهو ان يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه اذ اخذ في معنى آخر غيره وجعل الاول سبباً اليه فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير ان يقطع كلامه بل يكون جميع كلامه كأنما افرغ افراغاً وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه . وقد جعل ابن الاثير حسن التخلص - او ما نسميه اليوم حسن الانتقال - ركناً ثالثاً من اركان الكتابة التي جعلها خمسة - وحسن التخلص وجه من وجوه الوحدة وهو عند جميع نقاد العرب وجه من وجوه البلاغة .

وعرفوا من وجوه الوحدة ائتلاف المعنى على اللفظ وائتلاف الوزن مع المعنى والمعنى مع القافية واللفظ مع الوزن . والح النقاد على ضرورة الملاءمة بين المعاني فانكروا قول احدهم :

« مات الخليفة ايها الثقلان فكأنما افطرت في رمضان »

لان الوحدة مفقودة بين شطري البيت اذ جمع الشاعر بين الجيد والسخيف في البيت الواحد . وقال الجاحظ مشيراً الى تلاؤم المعاني وتوافقها : « في القرآن معان لا تكاد تفترق من مثل الصلاة والزكاة والخوف والجوع والجنة والنار والرغبة والرهبة والمهاجرين والانصار والجن والانس والسمع والبصر . »

وعرفوا من وجوه الوحدة التقسيم والتفريع واشار ابن الاثير الى مبدأ التنسيق والتدرج او ترتيب المعاني المتعددة ترتيباً صاعداً او هابطاً وتقسيم القول الى مطلع وجسم وخاتمة واشار صاحب « العمدة » الى ضرورة ربط المقدمة بالموضوع وربط الآخر بالاول ودلالة الاول على الآخر .

على ان شعراء العرب لم يتقيدوا بمبدأ الوحدة تقيداً تاماً او شديد التحرج ولا غرابة في ذلك فشعرهم بأسره شعر غنائي يستتبع حرية الشاعر ولا يطالب بالوحدة التي شرطها ارسطو في التراجيديا والملحمة وهذا بعينه ما يقوله نقاد الفرنجة العصريون : « ان الشعر الغنائي لا يتقيد بمنطق لانه يطيع حركات القلب ونزوات الشعور والخيال . والتشويش فيه ظاهرة طبيعية تتناقض مع ترتيب الشعر القصصي او الدراماتيكي » (ص ٨٦٦ Hist. de la litt. franç. Des Granges .

لكن الشعر الغنائي - وان ظهر فيه التشويش - لا يخلو من وجوه وحدة . ونلاحظ عند العرب ان المحدثين من شعرائهم اقرب الى الوحدة من الجاهليين وهذا ما لاحظه ايضاً صاحب « الوساطة » .

فالقصائد عند المحدثين موحدة الموضوع اذا حذفنا الاستهلالات الغزلية التي لم تحسب من صلب القصيدة بل كانت مدخلاً او استهلالاً عاطفياً او تمهيداً يهيىء الجو الشعري في القصيدة . حتى القصيدة الجاهلية لا تخلو من وحدة ظاهرة بين اجزائها فهي في مجموعها ذات موضوع رئيسي ذي فروع ، يدور على سرد مفاخر الشاعر ومغامراته وشعائره وتأملاته او مفاخر قبيلته او مآثر بعض العظماء . فهي ملحمة شخصية متعددة الالوان . وقد بين طه حسين في « حديث الاربعاء » ان القول بعدم الوحدة في القصيدة الجاهلية اسطورة وخرافة .

٢ - مبدأ الغلو والكذب . وقد اشار نقاد العرب بصورة صريحة الى مبدأ الغلو الفني والابتعاد عن الواقع وهو المبدأ المبني على العنصر الشخصي في الفن ونعبر عنه اليوم بقولنا « ان الفن هو الطبيعة مضافاً اليها الفنان » او « ان الفن هو الطبيعة كما تظهر من خلال مزاج الفنان » . وكل هذا يعني ان الفن غير الطبيعة . وكان اول من اشار الى ذلك ارسطو وعليه استند بعض نقاد العرب في عرض هذا المبدا . ومنهم قدامة بن جعفر ، قال : وللشاعر ان يقتصد في الوصف او التشبيه او المدح او الذم وله ان يبالغ ، وله ان يسرف حتى يناسب قوله المحال او يضاهيه ، ولا يستحسن السرف والكذب والاحالة في شيء من فنون القول الا في الشعر وقد ذكر ارسطاطاليس الشعر فوصفه بأن الكذب فيه اكثر من الصدق وذكر ان ذلك جائز في الصناعة الشعرية » (ص ٧٩ من نقد النثر) .

والواقع ان ارسطو في كتاب « الشعر » عرف الفن بأنه تقليد للطبيعة لكنه عاد فاستدرك بما معناه « انه ليس تقليداً صرفاً » لانه قال في مكان آخر : « يجوز ان يكون الفن افضل من الواقع وليس من الضروري ان يطابقه » وشرط وجود الخيالي او ما فوق الطبيعة (The marvellous) في التراجيديا ورأى ذلك اصلا هاماً من اصول الملحمة وبرره بقوله : لقد علمنا هوميروس فن الكذب بصورة لائقة معجبة .

وليس من الصعب ان نتبين اثر هذا المبدأ القديم في الشعر العربي - في ما يتضمنه من انواع الغلو والمبالغة او وجوه التخييل والاغراب والاختراع المعنوي . ومنها الموفق ومنها غير الموفق . ولنلاحظ هنا قول ارسطو ان عنصر الاغراب والفائق الطبيعة أشد اتفاقاً مع الملاحم وليس للعرب ملاحم مع ان شعرهم يشير الى

اساطير الجن والغرائب التي حفلت بها قصصهم .

٣ – مبدأ الغموض والايحاء – الايحاء مبدأ كثير الشيوع في النقد الحديث ومعناه ان يكون الى جانب المعنى الظاهر في الاثر الفني معنىً خفي او لغة اخرى خفية يشير اليها الظاهر بوسائل شتى : بالجو والنغمة والوزن والصور السريعة الموجزة التي تشبه اللمحات او التخطيط السريع فتوحي الى القارئ ان يتخيل ما بتر منها ، وينم الجزء عن الكل كما ينم الكم عن الثوب والزهرة عن الشجرة . كذلك الاصوات التي تثير الحلم وتبعث في النفس آفاقاً من التخيلات والافكار والشعور . والتعبير الغامض المبرقع والمفردات الموحية برنتها وصورتها كالاوزان الرباعية والالفاظ الغريبة الوقع التي تدغدغ الحواس او ترهفها .

وقد عرف العرب مبدأ الغموض وتبينوه في آثار شعرائهم وخطبائهم وناثريهم . واشاروا الى ان الشعر بالضرورة اغمض من النثر . قال الصابئ : « الترسل هو ما وضح معناه وأعطاك سماعه في اول وهلة ما تضمنته الفاظه . وافخر الشعر مـا غمض فلم يعطك غرضه الا بعد مماطلة . ويرى الجرجاني في الغموض حسناً وجاذبية لانه « من المركوز في الطبع ان الشيء اذا نيل بعد الطلب له ومعاناة الحنين نحوه كان نيله احلى وبالميزة اولى فكان موقعه من النفس أجل وألطف . » وقال ايضاً : « ومن شأن الاستعارة انه كلما ازداد التشبيه فيها خفاء زادت الاستعارة حسناً . » وقال ابن الاثير بنقد الابيات المشهورة ومنها :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الاباطح

قال وفي قوله مايشعر بدقة الاحساس الفني : « ان في ذلك وحياً خفياً ورمزاً حلواً . الا ترى انه قد يريد بأطرافها « ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والايحاء دون التصريح وذلك احلى وأطيب وأغزل وأنسب من ان يكون كشفاً ومصارحة الخ » .

كانت انواع الغموض عندهم الاشارة والايماء والتعريض والتلميح والايجاز بنوعيه من حذف وقصر ، والتورية والالغاز والرموز وقد ذهبوا في هذه الانواع كل مذهب لكنهم لم يبلغوا من ذلك شأو الحديثين من شعراء الغرب ولم تقم عندهم للغموض مدرسة او مذهب خاص وانما ادركوه كمبدأ شائع في الشعر ووجه من وجوه الجمال واستحسنوه وطربوا له .

الايجاز والغموض وجهان من وجوه الايحاء عرفها النقد العربي . اما الايحاء بالالفاظ والرنة والصورة والنغمة والوزن فليس له اشارة صريحة في كتب النقاد لكننا نجد عليه امثلة عديدة عند الشعراء نظير امرئ القيس وعمر بن ابي ربيعة وابن الرومي والمتنبي وغيرهم من امراء الوصف . واللغة العربية نفسها غنية بالالفاظ الشعرية التي تنم فيها الاصوات عن المعاني ، والالفاظ المحسوسة التي تثير الخيال والاحساس والتي يزيدها ايحاء جلال القدم وذكريات الماضي وما يحيط بها من جو شرقي اخاذ . ولذا رأينا الشعر العربي الحديث يلين بسهولة عجيبة للرمزية والانطباعية وكلاهما تعتمد الايحاء الموسيقي التصويري . وليس منا من لا يشعر بهذا التطور السريع الذي تحدثه الرمزية والانطباعية – فضلاً عن الرومنطيقية والبرناسية – في شعرنا العصري .

٤ – المعنى والمبنى – للفظة «معنى» دلالتان احداهما المعنى المطلق او كل ما تدل عليه الالفاظ مفردة او مجتمعة سواء أكان ذلك صورة ام فكرة ام عاطفة ، خيالاً ام حقيقة ، ابتكاراً ام تقليداً . امـا الدلالة الثانية فهي المعنى الطريف او الفكرة الجديدة او العبرة والحكمة والخطرة الفلسفية (idea) . وقد قصد نقـاد العرب بالمعنى دلالته الاولى اي المعنى المطلق غير المقيد بوجه من الوجوه .

وهم في بحثهم موضوع المعنى والمبنى جعلوا حداً فاصلاً بين هذين الركنين لم يجمعوا بينهما ولا اعتبروهما مندمجين غير منفصلين . ولكنهم نوّهوا بما بينهما من الارتباط الوثيق بدليل قول ابن المدبر في « الرسالة العذراء » : وقد شبهوا المعنى الخفي بالروح الخفي واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر . وكما اختلف غيرهم من النقـاد وترددوا في تفضيل احد الركنين على الآخر هكذا تضاربت آراء نقاد العرب في هذا الموضوع العويص . لكن اكثرهم على مذهب تفضيل اللفظ على المعنى وأرادوا بالالفاظ جمال المفردات كما ارادوا حسن رصفها وتركيبها .

قال العسكري في الصناعتين : « وليس الشأن في ايراد المعاني لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف وليس يُطلب من المعنى الا ان يكون صواباً ولا يُقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت » . ويزيد

قائلًا : « التوكيد بكيفية نظم الكلام لا بكثرة اللفظ » . فهو يؤكد لنا انه يقصد القالب لا مجرد اللفظ

ومثله ابن رشيق في « العمدة » ، يرى تقديم المبنى على المعنى . ويخالفهما في ذلك ابن الاثير ثم الجرجاني في « دلائل الاعجاز » حيث يعقد الفصول الطوال ليشرح لنا نظريته وخلاصتها ان البلاغة « في معاني الكلم دون الفاظها وان نظمها هو توخي معاني النحو فيها » . ويشرح ذلك بقوله : « كما لا تكون الفضة او الذهب خاتماً او سواراً او غيرهما من اصناف الحلى بانفسهما ولكن بما يحدث فيهما من الصورة كذلك لا تكون الكلم المفردة ... كلاماً وشعراً من غير ان يحدث فيها النظم الذي حقيقته توخي معاني النحو وأحكامه » . ويتوسع في ضرب الامثال ومنها : « خذ مثلًا بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

« اذا تأملته وجدته كالحلقة المفرغة التي لا تقبل التقسيم ورأيته قد صنع في الكلم التي فيه ما يصنعه الصانع حين يأخذ كسراً من الذهب فيذيبها ثم يصبها في قالب ويخرجها لك سواراً او خلخالًا، وان انت حاولت قطع بعض الفاظ البيت عن بعض كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار » .

ولكن ماذا نستنتج من قول عبد القاهر الجرجاني ؟ اتراه يجعل الاهمية للمعاني في فن البلاغة ؟ نعم حيث يظهر لنا بلاغة الكناية والاستعارة والتمثيل وهي داخلة في المعنى دون المبنى لكنه في بقية كلامه يبتعد عن هذا الرأي ويجعل مدار الفصاحة والبلاغة على نظم الكلام وتركيبه وصبه في قالب خاص كما يصب الصائغ ذهباً او فضة بحيث لو حاولت قطع بعض الفاظ البيت عن بعض كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار . وهو في هذا لا يختلف عن العسكري وابن رشيق حين قالا : « ان الشأن في صحة السبك والتركيب والخلو من اود النظم والتأليف» . الا انه افضل شرحاً منهما لاهمية القالب وافضل تحديداً لماهيته واكثر توسعاً في مدلوله . لانه يقصد به جملة التركيب والنظم وليس فقط رشاقة اللفظ وصحة العبارة وقد لاحظ ابن الاثير ايضاً مثل ذلك حين قال : « إنك ترى اللفظة تروقك في كلام ثم تراها في كلام آخر فتكرهها» . وهو هنا يشير الى أهمية رصف الالفاظ مع انه يقول في مكان آخر « ان الالفاظ والتراكيب مهما حسنت فهي خدم للمعاني » .

وليس من ينكر اهمية المعاني عند القدماء ولا عند المحدثين لكن معظم نقاد الغرب يجمعون على القول ان الفن هو في الدرجة الاولى قالب وشكل . قال برونتيار : مسألة القالب امر رئيسي في الشعر . الفن غاية نفسه عند الشعراء اما عند الكتاب فالامر بالعكس . وقال « آلان » : الفنان منفرد وعالمي في آن واحد . فافكاره من نفسه وهي مشاعة للجميع . وهو لا يسمى وراء فكرة نادرة او جديدة بل وراء طريقة جديدة يصور بها فكرة عادية »

وتقول اثل بقّر وفي قولها ما ينصف المعنى والمبنى : ان محتوى الاثر الفني لا يمكن اغفاله . والافكار التي يثيرها منظر بستان ورد قد لا تزيد في جمال البستان لكن الافكار التي يثيرها شعر شكسبير تستحق الاهتمام . فللافكار اهميتها في الشعر لكن الافكار العظيمة لا تخلق الشعر العظيم ولو كان الامر كذلك لعددنا ارسطو وسبينوزا وكانت شعراء فنانين .

عرف العرب اهمية القالب في الفن واسرفوا في هذه المعرفة حتى اصبح الشعر عندهم نحتاً وصياغة واسرفوا في توخي الجمال في جميع ما يقولون حتى طبقوا على النثر احكام الشعر فزخرفوه وسجعوه وقلما عرضوا لاظهار الفروق بينهما كما يفعل نقاد اليوم ، الذين يجعلون الشعر نقيض النثر ، احدهما قالب والآخر فكرة ولايزال عند كثيرين منا اليوم اثر هذا التخليط وهذا الاسراف ولا نزال نطرب للكلام المرصوف وان كان فارغاً ونرى الجمال في تعقيد اللفظ وان كان ممجاً . ولعل اسوأ ما عرفته مثلًا على ذلك بعض حكايات كامل كيلاني للاطفال ، يكتبها لهم بكلمات وعرة غير مألوفة ويشرحها بين قوسين . فما كان أغناه عن هذه الوعورة وذاك الشرح .

٥ – الفن للفن – ظهر في القرن التاسع عشر – من قبل جماعة من الفنانين – حركة دعيت مذهب الفن للفن وهي حركة نادى اصحابها بحرية الفن . وكان ظهورها ثورة على الادب التوجيهي وادب الدعاية الذي اراد تقييد الفن بغايات اجتماعية او انسانية وعلى الادب التعليمي والادب العلمي والادب الاخلاقي والنفعي في جميع وجوهه وصرح المعتدلون منهم انهم لا ينكرون على الفن ميوله الاجتماعية او الانسانية او الاخلاقية لكنهم ينكرون ان يتقيد الفن بهذه الغايات فهم يريدونه لذاته لا لغاية ما ، حراً في استهداف الغاية او عدمه . لكن المتطرفين منهم انكروا في الفن كل اثر توجيهي وأعلنوا ان كل نافع قبيح او مناقض للفن ودعوا الى

عبادة الجمال في الشكل والالوان والخطوط – هؤلاء هم البرناسيون –

وقد ظهرت الحركة جديدة في عهدها لكنها لم تكن كذلك. فهؤلاء ثاروا على تقييد الفن بغاية او رسالة وقبلهم ثار الرومنطيقيون على تقييد الفن بالتقليد وقبلهم ثار فنانو عصر النهضة Renaissance على تقييد الفن بالدين في العصور الوسطى. وقبل ذلك بقرون عديدة اعلن نقاد العرب حرية الفن من قيود الاخلاق ولم يعبأوا باحتجاج رجال الدين ولا باستنكار المحافظين.

كان الشعر الجاهلي شعراً طليقاً من كل غاية نفعية او توجيهية، لا يتقيد بسوى الخطة التقليدية التي خطها له المتقدمون. ثم جاء العصر الاسلامي وحاول الدين لاول مرة ان يبسط سلطانه على الشعر فكان سلطانه ضئيلاً في العصرين الاموي والعباسي لان نزعة الحرية الجاهلية ظلت قوية في الشعراء. فتمتعوا في ذينك العصرين بحرية دينية وفكرية واخلاقية قلما تعرف حدوداً وقلما نجد لها مثيلا عند شعراء الغرب قبل القرن التاسع عشر. وحسبنا ان نذكر شعر عمر بن ابي ربيعة والمثلث الاموي وبشار وابي نواس وابن هانئ والمعري لنعرف اي مدى من الحرية الفكرية بلغه شعراء العرب وادباؤهم.

وهكذا النقد العربي، أعلن حرية الفن من قيود التحرج الديني والاخلاقي وأراده فناً للفن. فقال قدامة بن جعفر وقد أورد ابياتاً فاحشة لامرىء القيس: ليست فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءته لذاته». وقال صاحب الوساطة: فلو كانت الديانة عاراً على الشعر وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره اذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك اهل الجاهلية ومن تشهد الامة عليهم بالكفر. ولكن الامران متباينان. والدين بمعزل عن الشعر».

٦ – الشعر والعلم – وكما فصلوا الشعر عن الدين والاخلاق فصلوه ايضاً عن العلم والحكمة والفلسفة. قال ابن رشيق في «العمدة»: والفلسفة وجر الاخبار باب آخر غير الشعر فان وقع فيه شيء منها فبقدر ولا يجب ان يجعلا نصب العين فيكونا متكأ واستراحة. وانما الشعر ما أطرب النفوس وهز الاسماع وحرك الطباع!». وقال صاحب البحتري في «الموازنة»: فان شئت دعوناك حكيماً او سميناك فيلسوفاً ولكن لا نسميك شاعراً – وما اشبه هذه الاقوال بما جاء في مقالة كروتشي في «الشعر والادب»: ان عالم الشعر يخلو من الفكر والنقد لانهما يحولان عالم الخيال الى الحقيقة... ان الفلسفة تقضي على الشعر بالموت حالما يقترب منها». وقول «مالرمي»: ان المنطق لا علاقة له بعالم الشاعر بل مستقل عنه كل الاستقلال».

وهذه الاقوال تحتاج الى شرح وتحليل لكن الذي يهمنا منها وجوه الاتفاق بينها وبين ما جاء انقاد العرب في موضوع فصل الشعر عن العلم والفلسفة. اي ان مبدأ حرية الفن من النواحي الثلاث – العلم والدين والفلسفة – وجد في النقد العربي بصورة صريحة لا اشكال فيها.

لكن هؤلاء النقاد الذين حرروا الشعر من ناحية تركوه مقيداً من ناحية اخرى – قيدوه بالتقليد والقياس على القديم. ومع انهم حبذوا الابتكار في المعاني ووقفوا بالمرصاد لاهل السرقات الشعرية وشددوا عليهم النكير لكنهم اغفلوا الابتكار في القالب والاسلوب وحاولوا احياناً حصر المعاني وتقييد الشاعر بمعان محدودة كما فعل قدامة في «نقد الشعر»، حيث يبسط للشاعر المعاني التقليدية التي يجب ان يتضمنها كل من المدح والرثاء والغزل والهجاء. فظل الادب العربي طوال عصوره تقليدياً في موضوعه واساليبه وفنونه يعيد نفسه في صور قلما تختلف عن سابقتها لان قالبها غير جديد وموضوعها كذلك.

وقد لا نلوم النقاد كما نلوم الشعراء انفسهم لان تطور النقد يتبع تطور الفن وينسحب على اذياله. واذا استثنينا ثورة ابي نواس على الاسلوب وتجديد ابي العلاء في الموضوع لا يسعنا الا الاعتراف بأن تطور الشعر العربي كان شديد البطء. قليل الوضوح. ولعل انعزاله عن باقي الآداب العالمية كان اهم اسباب جموده. وهذا الانعزال يفسر لنا قول الجاحظ في مقدمة بعض كتبه: «وفضيلة الشعر مقصورة على العرب».

روز غريب

حنين

الى الذكريات التي لم تزل ندية ، الى الماضي الحبيب من هذا الصيف الجميل !

☆

وحدي، وذكر الامس يملأ حاضري   وتلوح آثار الحبيب لناظري
فألمّ اشتات الحيـاة وانثني   ابكي على العهد الجميل الغابر
طيفَ الحبيب تحية مني له   خذها اليه مع النسيم العاطر
لو كنت املك ما اريد تبعته   شوقاً اليه على جناح الطائر
وقضيت عمري هانئاً في قربه   يحنو على روحي بروح الشاعر

•

وحدي وايام الخريف كئيبة   مرت بها كف الزمان القاهر
يمشي الفناء على الطريق بجانبي   وتنوح اوراق الصبـا المتناثر
حتى كأن بها الذي في اضلعي   او بعض ما ترك الاسى بمحاجري
فسلخت من طيات قلبي صفحة   وملأت من دمع الجفون محابري
وسهرت اذكر نادباً امسي الذي   قد كان من عمر الجمال الساحر
امسي الذي عانقت فيه محبتي   وعرفت اسرار الضمير الطاهر

•

وحدي ، وليل الشوق يسعفه الجوى   وتطيله ذكرى الحبيب الهاجر
واظل بـين تأمل وتحسر،   حتى تفيق من الذهول خواطري
وارى على الافق البعيد خيـاله   حلماً يرف مع الصباح الباكر
فأضمه املًا تواكبه المنى   واحبه نغماً بروض زاهر
يصحو الفؤاد على نشيد غرامه   وتعود ايام الشباب النـاضر

•

وحدي اسائل عن حبيب غائب   بالامس كان اليف روحي الحائر
يشكو الي شجونه وابثه   شوقي الى بحر الحياة الزاخر
ونسائل الايام هل تركت لنا   غير التوجع من زمان غادر

•

يا ايهـا الماضي الذى اشتاقه   ذكراك ترقد في فؤادي الساهر
وترف انفاسي على جنباتها   عطراً تموّج من لهاث مباخري

سوق الغرب   جبرائيل بارودي

لعنة العمر

بقلم مظفر سلطان

•

اذكر اني استيقظت في متوع يوم من ايام الربيع العابرة على ضجر خانق يأخذ عليّ كل مسلك، وعلى سآمة سامة تشيع في كياني وتفيض من مقلتي فتشوه لي الحياة ، وتشوهني من الحياة ... فاذا انا اشبه الاشياء بدمل بشع على جسد قـذر : كلاهما ساخط على صاحبه ، وكل منهما أجدر من صاحبه بالسخط واللعنة ! والحياة .. بكل احداثها .. ومفاجآتها انشودة ممجة يرددها صوت بغيض على نغم رتيب يوغر الصدر ويزهق الصبر ، ويغري بكل شيء .. الا بالحياة ..

واذكر اني تسللت من المدينة لواذاً ، وخرجت ادلف نحو بقعة بعينها عند الافق : سحر عندها ذهولي فما عاد ينثني عنها او يتحول .

ولست لاذكركم لبثت على هذا ... ولكني اذكر اني حين ثبت الى نفسي بعد حين ، وجدتني ، والجو طلق والنسيم نـدى رفيق ، والطبيعة صبية مليحة تلقت للحظتها نبـأ العمر السعيد ، والقزع البيض في رقعة السماء اطفال ابرار في ثياب هفافة ناصعـة يمرحون ... يمرحون على البساط الازرق حيناً ثم يستبقون الافق عدواً امام اطفال بررة آخرين .. من اعقابهم لاحقين ...

ولقد كانت الشوارع المنصبة في المدينة التي شارفتها نظيفة متألقة حتى لكأنها دروب من نور السماء هبطت الارض ليوم فرح مشهود ! اما المدينة فنائمة او كالنائمة : بيوتها عرائس شتى ناهضات، وحدائقها رياض زاهرات حانيات ، واشراقها كاشراق البسمة على اعقاب الدمع في الوجه الفاتن الحبيب ...

اية روعة ! ... واي فتون ! ... واي جمال عبقري ينبثق من الارض ، يهمي من السماء ، ويفيض من كل مكان ! ...

بل اي عجب ! ... فالشوارع جميعاً ، على رحبها ، واناقتها، واشراقها .. لا ترى فيها انساناً ولا شبحاً لانسان ! .. لا حيوان . ولا عربة .. ولا حس .. ولا نأمة .. الا الصمت .. الصمت العميق الرائع ...

اما الحوانيت والمتاجر فلم يكن لها من اثر : مفتوحة او مغلقة .. وليس ثمة الا القصور المترفة تحف بها الحدائق الحانية .. وتصل بينها دروب السماء ...

وليس العجب في هذا فحسب .. بل العجب جهد العجب اني احسست حين دخلت هذه المدينة بأنني انسان يولد من جديد ، ويولد على انعم وابرع ما يولد عليه انسان ! لا تذكر ، ولا تدبر ، ولا ألم ولا أمل .. حتى الامل كنت اشعر باني جزت حدوده واستعليت عليه ... ولقد احسست على حين غرة بأني اوتيت عجباً عظيما : لقد احسست بأني اوتيت القدرة الخارقة التي تسخر لي ان افعل ما اشاء حين اشاء ، وان اطلب الشيء اعجز الاشياء فاذا هو طيّع يسعى بين يديّ على اتم واكمل ما اردت وما اريد .

وليس لمخلوق في هذا البلد ان يسأل امرأ بلسانه : وما عليه الا ان يستحضره في خاطره فاذا هو حاضر بين يديه في مضـاء الخاطر ، وما عليه ان يخاطب انساناً – اذا كان في البلد انسـان غيري – ليفهمه ما يريد ، فكل من في البلد فاهم وكلهم مفهوم ، وكلهم في وحدة متنادية متكاملة ليس لها انفصام ...

ما اروع هذا القصر الوردي ذا النوافذ المغلقة ، والذي يبدو من بين الاشجار كوجه الحسناء المتورد لم تتفتح عيناها على لألأ الصبح بعد ! . . .

ووجدتني ادلف فيه مشدوهاً والامنية لم تكتمل في خاطري بعد . . . ووجدتني بالتالي في بهو فسيح انيق قد انبث في رحبه واطرافه اسراب الصبايا المتحلقات جماعات ، المتحدثات فيما بينهن بغير حديث ، الغارقات فيما هن فيه ، فلا يلتفتن اليّ ولا يكدن يعرنني نظرة ! . . .

وفيهن الوسيمة الفارهة ، وفيهن الحلوة الرقيقة ، وفيهن النصف التي اكتمل حسنها فليس فيه زيادة لمستزيد .

ورحت اسرح طرفي فيهن وكأني ابحث عن وجه بينهن . . وجه كأني كنت اعرفه ولا البث ان اراه الساعة لانه الوجه الذي لا بد اني عرفته منذ الازل . . .

واستقرت نظرتي الخاشعة عليها . . . هذه هي المرأة التي ولدت لاراها حيناً . . وتراني . . . ثم نعود . . .

ورأيتها بجانبي : ندية كزهرة الصباح ، صافية كدمعة الطفل ، جميلة كأجمل ما تكون الحياة . . ورأيتها تنظر اليّ بعينين ساجيتين مريحتين ، فيهما دون سواهما ستهجع روحي الولهى بعد سفارها الطويل . .

ولقد هممت بأن اقول لها بصوت هو احن من نظرتها الرؤوم :

— لله . . . كم تعبت يا فتاتي حتى لقيتك . . . فاذا انا افهم عنها ترد عليّ بصمت تقي عميق :

— والله كم انتظرتك في قلبي حتى رأيتك في عيني ايها . . الصديق . . .

ولقد هممت بأن اقول لها في تأثر يكاد يلوذ بالدمع :

— هل ترين ان انساناً احب كما احب انا الساعة ؟ . . . فاذا هي تجيب في صمت عميق رزين :

— كل الناس هنا يحبون حبك . . . الحب عندنا لا يزيد . . لانه لا ينقص . . .

— وانت ؟ . . .

— احبك حبك اياي . . .

— فاذا ما انقضى حبك في ذات يوم ؟ . . .

— تنقضي حياتي . . .

فقلت معابثاً .

— فاذا ما انقضى حبي انا ؟ . . .

فغامت عيناها بنور أغبر لحظة ، ثم اجابت في ايمان صامت لا يرقى اليه ظن :

— انك لن تستطيع . . .

— فاذا فعلت ؟ . . .

— انك لن تستطيع . . .

فقلت في عناد صامت صارم :

— فاذا ما ظللت ففعلت ؟ . . .

فتعاقبت الوان القتام على عينيها المروعتين ، وردت صامتة بهول :

— كان وجودنا عبثاً . .

واستيقظ فيّ الانسان ، وعاودتني ظلال تتلوى وتفح من ضجري ونقمتي واستهتاري ، وومض في كبريائي العريقة ان امضي عنها لتوي فأرى ما هي فاعلة . . وانفلتت عنها ، وغادرت البهو فالقصر ، وانا لا انظر خلفي استعلاء او كبراً . . ولكنني كنت احس بأنها كانت تتبعني خطوة خطوة ، ولو لم تكن فعلت لانفطر قلبي ، وتصدعت روحي ألماً وخزياً وسعارا . .

كانت تتبعني امينة مستكينة صامتة كالنعجة الالوف التي تتبع راعيها الواثق الى المرتع الموعود ، وكنت اتقدمها مصمماً مزهواً كالطاووس الغر بسط ريشه جميعاً لاعجاب الشمس الباسم . . . ولكن وقفة قصيرة منها كانت تكفي لتقتلني للحظتي افجع القتل ! . . فكبريائي تكفني عن العودة اليها ولو ضحيت فيها كل العمر ، وحياتي معلقة بنظرة من عينيها الساجيتين . . وفيهما — دون سواهما — ستهجع روحي الوالهة الى الابد . . وانا اتقدمها كالطاووس المزهو بسط ريشه جميعاً لتحية الشمس المعجبة ، وهي تتبعني كالنعجة الصالحة تجد في اثر راعيها القديم الى المرتع الموعود . . .

وجزت المدينة بالتالي . . وابتعدت عنها خطوات ممدودات . . وانهارت روحي المتوجسة دفعة واحدة ، حتى لكأني كنت احس ما احس وانا ميت قديم يشعر بالالم لفرط الالم لا لفرط شعوره . . .

كنت احس وقوفها عند آخر حدود البلد وتخلفها عني مصممة حتى لكأن قدميها قد سمرهما الى الارض كل سحر الارض . . وحتى

لكأن جسدها الغض غرسة طرية تدفعها الريح اليّ لهفاً ، وتربطها جذورها بالارض ما تهن ولا تريم ...

وخنقني الغضب والعار حتى لاعجزني ان استدير اليها متسائلا متوعداً .. ولبثت لحظة ساحقة وانا بين ان التفت اليها كقاتل مروع يلتفت ليواجه ضحيته الرهيبة ، وبين ان امضي عنها لحمقي الخالد فلا اراها ابد الدهر واعيش ملعوناً فيها ابد الدهر ... ثم استدرت اليها كلسان النار انظر فيها واقول بصوت اخرسه اقتل الغضب :

— لكأني بحياتك التقية ستنقضي بانقضاء حبك التقي يا صديقتي ! ...

فقالت ترد عليّ كالضحية البريئة يؤلمها فرط العذاب ... وبعينين رائعتين فيها روحي الممزقة تحتضر ، وبصوت كصوت النار يعول في يبس الهشيم :

— لأن اموت عضواً فعضواً ومرة بعد مرة ، ولان امزق قلبي بأنيابي وادوسه بقدمي ، ولان يسري سم احتقارك في روحي كالمهل وفي ليالي كاللعنة احب الي من ان يعجزني اللحاق بك الساعة ...

— فلم لا تتقدمين ؟! ...

— هنا السر .. وهو اعمق من الحب .. ومن الحياة ..

ونكست رأسها الجميل كعلم مجيد يهوي ، ولم تعد تنظر الي ، ولم تعد تتقدم خطوة ولا تتأخر ، ووقفت .. صامتة .. مترنحة .. متخاذلة كالغرسة الوالهة يعبث فيها الاعصار المصمم من كل فج ، ولا يملك لها اقتلاعاً ...

وثار في رأسي الشيطان عسوفاً باغياً .. وتحولت عنها .. ومضيت .. وامعنت .. شيطاناً ملعوناً بغير روح ...

واذكر اني عدت الى بلدي وسلخت فيه يوماً وبعض يوم .. فريسة دامية بشعة لألم الصور واقتل الفكر ...

الحب يهتف لي من بعيد كطفل برىء قتلته بيدي وارقت دمه في وجوه الارض وعلى مناكب الفضاء حتى لاستحالت كل ذرة من ذرات الارض ، وكل نأمة من خضم الفضاء عويلاً رائعاً يدعوني الى العودة ويطالبني بدمه المهدور ، والكبرياء .. عجوز شمطاء لاذعة العين سامة النظرة ، ما تفتأ تعترض لي كل سبيل وتسد عليّ كل درب ، وهي تقهقه وتولول وتصيح :

... ستذهب .. ستذهب .. عليك لعنتي الدائمة .. انك لا بد ذاهب .. امض عني ايها النذل العريق .. ايها العار الابدي .. ايتها الجيفة العاشقة .. امض عني واتركني لآلامي وعاري .. اني سأموت .. سأتمزق .. سأجن .. سأحترق مجنونة .. انظر .. انظر ...

وعلى مفترق الطرق رأيت العجوز الشمطاء تستحيل عموداً من دخان اسود متأود ، ثم لساناً من نار حمراء دامية ، فخضراء ساجية ، فصفراء شاحبة ، فبيضاء ناصعة .. ثم تخمد .. وتفنى .. وينفسح لي الطريق ...

وطارت روحي الجذلى تتقدمني في الدرب الحبيب ... وأنها لارجاء معهودة ما اسرع ما كنت اعرفها وتبسم لها الروح بالتحية . في كل منعطف منها كنت قد خلفت شلواً دامياً من اشلاء قلبي المحطم ، ولقد رحت اقطع الطريق كالنسمة الرشيقة اللاهفة ، اجمع اشلاء قلبي المبعثرة على حنايا الطريق .. واطوي اجيال الطريق ...

واقتربت من مدينة قلبي بعد ساعات او بعد لحظات ... لست ادري .. وقلبي بين جنبي كمهر حبيس يتنزى قوة وفتوة .. وادركت موقفي القديم كما يدرك كأس الماء النمير ثغر اللاغب الهيمان .. وعيناي تثبان في ارجاء البلد تبحثان ، وقلبي وشيك الوثوب ليحمل اليها البشرى ...

وسمرت قدماي الى الارض لا تستطيعان انتقالا .. ووقف قلبي بين جنبي مبهوتاً لا يملك صنيعا ... كمن يقبل على عرس سعيد فاذا هو مقبل على مأتم فاجع ... وارتفع من اعماق الارض ، وانصب من اعماق السماء صوت اقدس يقول :

— هنا السر .. وهو اعمق من الحب .. ومن الحياة ...

وضج الالم الصارخ في دماغي حتى يكاد ينفجر ، واحسست باني مجنون يحب مرة اخرى .. ونظرت حولي فاذا الجو اغر اسعد فتان ، والطبيعة جنة عذراء ساحرة ما كادت تنتبه من النوم على فتور فاتن حتى اخذ النوم ضنيناً بما عقد اجفانها مرة اخرى ... والقزع البيض في رحيب السماء صبايا مشرقات عابثات ما يفتر لهن مرح .. واذا طائر صغير ينطلق الى المدينة رخي الجسم هني البال ، ويحلق فوق رأسي بجناحين ناعمين لا يكادان يخفقان ... فنكست رأسي في استسلام وهمست لنفسي في سلام :

— ليس لك ايتها النفس الا ان تقنعي بهذا الطائر السعيد ينطلق اليها فيراها وتراه ..

حلب — مظفر سلطان

التعب

بقلم اديب يوسف
استاذ في مدرسة الامريكان للبنين
ببغداد

★

اكثر ما يلفت نظر الانسان ويثير فضوله تلك الجوانب الغريبة من حياته يقف لها من وقته الساعات الطوال ويبذل في سبيل تفسيرها الجهود اما الجوانب المألوفة من حياته فقلما تجذب انتباهه او تثير فضوله . « والتعب » واحد من هذه الجوانب المألوفة فان احدنا لا يعجب اذا ما عمل عملاً شاقاً فأحس من بعده بالتعب ولكنه يعجب اشد العجب ان هو عمل عملاً شاقاً فلم يحس من بعده بما كان ينبغي من تعب . وليس يعني هذا ان الجوانب المألوفة اقل اهمية من الجوانب الغريبة من حياتنا بل لعل العكس هو الصحيح يدل على ذلك الاهتمام الشديد الذي اخذ يبديه علماء النفس في موضوع التعب منذ مطلع هذا القرن وهذه الوسائل المبتكرة التي اصطنعوها لقياسه ومعرفة القوانين التي يخضع

ان موضوع التعب من الاهمية بحيث ينبغي الا تفوت معرفته احداً ولا سيما اولئك الذين يعنون بشؤون الاطفال : واعني بهم المدرسين، فحتم على كل مدرس اذا اراد ان يؤدي مهمته على اتم وجه ان يعلم شيئاً عن سكلجة التعب وان يعرف اعراضه عند تلامذته واسبابه علاوة على اتقانه المادة التي يسلكها وعرفانه الغاية التي يرمي اليها . اما اعراض التعب فلا تنحصر في احساس المرء به بل ان الشخص المتعب جسمياً اوعقلياً ليبدو ضئيل النشاط في حركته ضعيف الحيوية في حديثه نافراً من القيام بأي عمل ميالا الى النوم في كل لحظة : فالطفل المتعب ينام وسط الاعيبه والجندي المنهك قد ينام وسط المعركة على أصوات المدافع .

وتصحب اعراض التعب في بادىء الامر ذلك العضو الذي قام باكبر قسط من العمل فاذا ما وصل الى حد الانهاك سرت الاعراض الى الاعضاء الاخرى وربما عمت الجسم كله . ولذلك ترانا بعد مسيرة طويلة نميل الى الاستراحة بالحديث او بالقراءة المسلية . اما ان التعب لم ينحصر في عضلاتنا بل شمل غيرها من اعضاء الجسم ومنها العقل فيبدو في عدم ميلنا الى القيام بأي عمل عقلي عنيف . كذلك نرانا بعد بذل مجهود عقلي عنيف نميل الى الاستراحة بالخروج الى التنزه على اقدامنا ، ولكن اي عمل عضلي اعنف من السير على الاقدام يزيد في تعبنا لان المجهود العقلي لم يتعب الدماغ حسب بل شمل غيره من اعضاء الجسم الاخرى . ولذلك ينصح للشخص المتعب تعباً شديداً ان لا يثقل معدته بالاطعمة ولذلك ايضاً لا يستبعد عند عدم استماعه للنصح ان يوقظه المرض من نومه . والحق ان الطبيعة تحرم المرء شهيته عندما يكون منهكاً فيقتصد في الاكل حرصاً على صحته وسلامته .

وقد يصبح التعب في بعض الحالات مزمناً : فهناك اشخاص يشكون منه باستمرار، وهناك آخرون ينعسون في الصباح ويهنون ويفترون ظهراً . وليست « علامات الخطر » هذه بنادرة بين الاطفال ، لذلك ينبغي الا تفوت ملاحظتها المعلم خشية ان تزداد او تتفاقم وتنتهي بالمرض ويعرف الطفل المصاب بالتعب المزمن بجبهته المتغضنة وعينيه الغائرتين المشوبتين بزرقة خفيفة في اسفلها واتساع حدقتيها وبطء حركتها . وتعاني صحة الطفل العامة كثيراً من هذا التعب المزمن فتغدو شهيته سيئة وتغذيته ناقصة ، ولا يعود يقوى على المضي في عمله المدرسي فيتشتت انتباهه ويتبلد ذهنه .

ويمكن ان يعتبر التعب فسلجياً نوعاً من التسمم الذي تحدثه

الفضلات المتبوجة من الانسجة في اثناء قيامها بوظائفها وفي حالات التعب الشديد يوجد الى جانب التسمم اجهاد عصبي . لان المجموعة العصبية تدير جميع وظائف الجسم وتشرف وتسيطر عليها . وفي حالة الصحة يكون مقدار الطاقة العصبية التي في حوزتنا اكثر من حاجة الجسم ولذلك تكون المجموعة العصبية مستعدة للطوارىء تمدنا بما نحتاج اليه من طاقة عصبية لتدريب جسمنا وعقلنا .

وها هنا اهم اسباب الاجهاد العصبي :

١ – الوراثة ، لا شك ان الناس يختلفون كثيراً في مقدار الطاقة العصبية الموروثة كما انهم يختلفون في نوع العمل الذي يناسبهم فالشخص الذي يستمر على القيام بما لم يخلق له لا بد ان يعتريه الاجهاد العصبي وهذا يعني اننا لا يمكن ان نضع لعدد كبير من الاطفال منهاجاً دراسياً واحداً من دون ان نتعرض لاشد الاخطار ، وان مناهج الدراسة اذا مضت على عدم اعتبار هذه الحقيقة الجوهرية فلا أمل في النجاة مما تؤدي اليه من اضرار .

٢ – الغذاء الهزيل : اذا لم يكن غذاء الطفل كافياً او اذا لم يكن مناسباً او كانت الشهية مفقودة ساءت تغذية الجسم وساءت تغذية الجهاز العصبي كذلك . ومعظم الاطفال الذين يذهبون الى المدرسة من دون فطور انما يحجمون عن الفطور لان الشهية عندهم مفقودة وكثير من هؤلاء تعود اليهم شهيتهم حالما يعفون من الذهاب الى المدرسة : وهكذا تحرمهم المدرسة شهيتهم وهذا نفسه يجعلهم غير اهل للبقاء في المدرسة .

٣ – بيئة غير صحية : قد يكون منزل الطفل في مكان غير صحي وقد يحشر في صف مزدحم قليل النور ردىء التهوئة .

٤ – نوم قليل : في النوم يستعيد الطفل كل نشاطه ولذلك لا يقل النوم اهمية عن الغذاء في صحة الطفل . ويقضي معظم ايامه الاولى في النوم . ولكن ساعات يومه تأخذ في التناقص التدريجي مع تقدمه في العمر . الا ان الثقات في هذا الموضوع مجمعون على ان الطفل يحتاج الى ساعات طويلة من النوم الى ان يقف نموه ويجب الا نكتفي بان تكون فترة النوم طويلة بل ينبغي ان تكون ايضاً فترة هادئة فلا يوقظ الطفل باقتحام غرفته بين حين وآخر ، وينبغي ان يألف الذهاب الى فراشه في ساعة معينة . وشيء آخر يجب الا يفوتنا ذكره : ذلك ان غرفة النوم يجب ان تكون مظلمة في اثناء النوم لا يتسرب اليها النور لان الذين يوصف نومهم بانه (خفيف) لا يستطيعون النوم في النور كما ان اولئك الذين يستطيعون ذلك لا يكون نومهم عميقاً على الاغلب . فاذا لم تتيسر الظلمة في غرفة النوم تعرض الاطفال ولا سيما في الصيف لان يستيقظوا من نومهم قبل ان ينالوا كفايتهم منه .

٥ – طول حصص الدرس وكثرتها : ينبغي ان ننظر الى تعب الاطفال في المدارس من ناحيتين طول الحصص وكثرتها لان الاطفال الاحداث لا يستطيعون تثبيت انتباههم الا لمدة قصيرة فينبغي ان تكون حصصهم قصيرة تتخللها العاب .

وقد ابتكر علماء النفس وسائل عديدة لدراسة التعب وقاموا بتجارب كثيرة ودراسات متعددة نكتفي بذكر أهم نتائجها وهي : ان التعب في جوهره نوع واحد وهو التعب العصبي . وان كل الاعمال مهما كان نوعها تؤدي الى صرف الطاقة العصبية المخزونة وان دروس الرياضة لا تقل عن سائر الدروس صرفاً للطاقة وانه ما دامت الطاقة العصبية محدودة يجب ان تقدم الدروس التي تستنفد طاقة اكثر على غيرها ، وقد تمت دراسات متعددة لترتيب المواضيع حسب ما تسببه من تعب ولكن النتائج اختلفت وذلك امر طبيعي ما دام جزء كبير من ذلك يتوقف على شخصية المدارس وطريقته . غير ان الدراسات متفقة تقريباً على ان دروس الرياضيات واللغات الاجنبية هي من اكثر المواضيع استنفاداً للطاقة وان النشيد والرسم من اقلها استنفاداً لها . وقد ظهر ان الرياضة البدنية من بين المواضيع المتعبة جداً . ولكي نفهم وضع المواضيع الاخرى نذكر قائمة الدكتور Kemsies مرتبة حسب ما تؤدي من تعب : الرياضة البدنية ، الرياضيات ، اللغات الاجنبية ، الدين ، لغة الاهل ، العلوم والجغرافيا ، التاريخ ، النشيد ، والرسم ، ويحسن قبل الانتهاء ان آتي على رأي الدكتور Bellei فيما يتعلق بدروس ما بعد الظهر : « ان العمل الذي يقوم به الاطفال في دروس ما بعد الظهر نظراً الى ما يسببه من تعب عقلي شديد ليس يرجى منه فائدة في تثقيفهم بل انه مليء بالخطر على صحتهم » .

بغداد ــ اديب يوسف

الغناء التركي

☆

غنـاء يسيل رخي اللحون ... وينصبّ في السمع كالجدول
حنوناً كأعمق ما في الحياة ... من الوجد والشوق والمأمل
خفي السرى فكأن الغيوب ... هدته الى القلب من مجهل
تطير الرؤى في صداه البعيد ... وتسمو بروحي ولا تأتلي
تموج به خلجـات الحنين ... طيوراً تحوم عـلى منهل
ويشدو بأشواقنـا الخالدات ... وينعش مـن جونا المثقل
واعذب ما فيه هذا الشجي ... يفيض فيشجي فؤاد الخلي
تمـازجه غنـة حـلوة ... كما مزج الخمر بالسلسل
فأرشفُه نغمـةً نغمـةً ... بسمعي واسكر في معزل
واهفو بروحي الى موطن ... تفرد في سحره المشمـل
شواطىء في سمـرة تُشتهى ... وافـق أرق مـن المخمل
وتلك البقـاع الملاح التي ... تخيلتُهـا فتنةَ المجتلي
مكللة بالذرى الحالمـات ... فيا للحسان ... ويا للحلي !!
هنيئـاً لتركية كنزها ... من النغم الخالد المرسل ...

العراق — العمارة ... انور خليل



١ — فن انشاد الشعر العربي

للاب اغسطس الفرنسيسي – ٧٧ صفحة – مطبعة الاباء الفرنسيسيين بالقدس

هي رسالة انشأها مؤلفها بالافرنسية ، ورأى الاب اسطفان الفرنسيسي والدكتور اسحق موسى الحسيني فائدة نقلها الى العربية ، وحسناً فعلا . فالرسالة تداور موضوعاً جم الجدة بل جديد من كل وجه ، جم الفائدة بل مفيد رغم اي اعتبار .

وقد زاد المترجمان الفاضلان في حسن صنيعهما فأضافا مقدمة ماتعة قيمة ، تناولت فن الانشـاد في اقدم عهده يوم كان رغبة وافتناناً ، وقبل ان يستوي علماً او شيئاً يشبه العلم . ثم تناولت بدء تدوينه في شيء من التساؤل ، وان اليونان والرومان سبقوا سواهم الى التدوين في شيء من القطع ، وان يكن فنهم فيه غير واضح المعالم لنا اليوم على التحديد .

ثم تتناول الانشاد العربي وتقطع بأن العرب تأخروا في وضع قواعدهم ، ولان العرب كانوا لا يعرفون الاشارات الخاصة بالضغط الصوتي لم يقيدوا فن الانشاد تقييداً تاماً ، وظل اعتمادهم فيه على الرواية فقط . « ومع ذلك فنحن نستطيع ان نصل الى نتائج في الانشاد العربي اقرب الى الصحة والدقة ، مما وصل اليه الباحثون في فن الانشاد عند الامتين اليونانية والرومانية ، وذلك بفضل بقاء اللغة العربية لغة حية متصلة النطق من قديم الزمان الى يومنا هذا » . ولا تذهب المقدمة بعيداً في تقرير هذا الاتصال ، بل تعرض للاختلاف البين في لهجات العرب في مختلف اقطارهم ، وتلحظ اثره وترده الى اسبابه المباشرة .

وتبلغ المقدمة قمتها بتسجيل ملاحظة جد قيمة وجد حقيقية ، وهي ان الانشاد فقد أهميته اليوم لاعتماد الشعراء عـلى النشر الكتابي دون الالقاء . وكان لهذا اثر عكسي في الحاسة التي تتذوق ، والحاسة التي تعبر ، فالمحدثون « يعتمدون على عيونهم لا على آذانهم ويقرأون بدل ان ينشدوه ، وبذلـك ضعفت آذانهم واختلت موازينهم الشعرية وفقد الشعر خاصية من اجل خصائصه واعظمها تأثيراً في النفوس ، ووصل الى ما نراه اليوم من فتور واضطراب » .

ولم يفت المترجمين الفاضلين التنبيه الى ان تلاوة القرآن كان يرافقها الانشاد ، وان بعض الغربيين حاول وضع رموز موسيقية للتلاوة ، كالمستشرق لاين والآخر برجشترسر . وكان طليعة المحاولين لبحث الانشاد العربي وضبطه ، العالم ستانسلاس جويار وتشارلس لايل والاب اغسطس الفرنسيسي صـاحب هذه الرسالة ، التي جاءت اتم واوفى من كل ما سبقها .

ولذا عنيا بترجمتها ، ولذلك اختصاها بالاختيار ، وكان عملها صنيعاً حسناً ، اذ بذلك اثارا فن الانشاد الشعري كموضوع يبحث ويدرس بين موضوعاتنا التي نتعلقها بحثاً ودرساً ، بعد ان لم تكن لنا به سابقة تعلق .

ورغم ما وفق اليه المترجمان الفاضلان في مقدمتها ، فقد مالا في بعض نقاط البحث الى التقرير والتقرير المجرد احياناً . ففي ص٦ ذكرا ما يفيد ان طريقة الانشاد العربية للشعر لم تعد متصلة الينا بعدم اتصال الرواية ، التي كانت وحدها سبيل النقل وبتعبير القدماء (سبيل الاخذ والاداء) . وفي ص ١٠ قررا ان تلاوة القرآن كان يرافقها الانشاد وفق اصول معينة . مما يشعر بأن الانشاد الشعري انطمست طريقه اللاحبة وقواعده ، ويشعر بأن تلاوة القرآن شيء والانشاد الشعري نفسه شيء آخر .

بينا الواقع الادبي الذي نجد الشواهد الكثيرة عليه ، يستوي على ان طريقة الانشاد الشعري ظهرت في التلاوة التي احتفظت بمعالمه .

فللقرآن نظم خاص يجيء في ايقاعه اقرب مـا يكون الى الايقاع الشعري ، فمال المرتلون القدماء الى اتباع طريقة الانشاد الشعري في تلاوته ، وانتظم الترتيل القرآني المتحدر من الانشاد الشعري مع الايام علماً ، عرف بالتجويد ضبط اداء الحروف والجمل ضبطاً دقيقاً . وهذا ينتهي بنا الى ان معالم الانشاد الشعري مجتمعة في التجويد ، وان التجويد وحده هو الذي يلقي على البحث ضوءاً حقيقياً ، اما العروض فمساعد فقط .

ونحن بصاحبة هذا النظر ، اذا انتقلنا الى الرسالة نفسها نجد انها استبعدت التجويد كأساس ، واستخلصت طريقة جديدة مستهدية بالعروض ، فتكلفت وضع ثبت بكل بحر رغم ان البحور

مشتق بعضها من بعض ومتطور بعضها عن بعض ، وعمل الخليل كان على الحقيقة احصائياً لا تحليلياً .

ومهما يكن فالرسالة فسحت في سبيل بحث جديد ، ووضعت اصول طرائقه ، وعسى انها تهيب اليه .

٢ — السلوان الكاذب

للاستاذ خير الدين الايوبي — ٣٩٧ صفحة — دار اليقظة العربية بدمشق

قصة مأساة مفعمة باللوعة المتلظية والعاطفة الجريحة ، والهوى الظامىء الى الارتواء والى الانتقام جميعاً .

واساس البناء فيها ، شاب بدمشق فتاة تبادل الهوى سواه ، وتتعلقه اخرى فلا يبترد بها هواه ، فجاءت وكأنها حكاية قول الاول :

جنت بليلى وهي جنت بغيرنا   واخرى بنا مجنونة لا نريدها

ولكنه افرغ عليها من الالوان ونشر فيهـا من الاضواء والظلال ، ما جعل منها عملاً فنياً جميلاً واثراً ادبياً ماتعاً .

والحوار في القصة موفق جداً لولا التطويل المملّ احياناً ، على انه يبلغ ويشتد في القسم الدائر بين منير وليلى .

ووجه آخر اضعف جانب الحوار فيها ، وهو انجذاب الاستاذ المثنى الى تقرير الفكرة العارضة ، بأكثر من المحافظة على الداعية الفنية الخاصة ، وبذلك بدا السياق الفني غير محكم الاطراد دائماً .

واما اسلوب القصة الادبي فمهذب مصقول ومفرداته نقية منتخلة ، وتروق المطالع قدرة المثنى الوصفية . . على انه لم يخل من ظاهرة التقليد للمرحوم الرافعي والتكلف له والكلف به ، ولاسيما في رسائل الاحزان والسحاب الاحمر .

وان كنا نأخذ على الاستاذ المثنى شيئاً في غير هوادة ، فطائفة من الهنات النحوية واللغوية مثل :

في ص ٣٦ «او ليس عملي هذا بأعظم » وصحته او ليس بعملي هذا اعظم . وفي ص ٧٠ لوحدي وصوابه وحدي . وفي ص ٧٢ ووقفت اتفرج ، التي استعملها بمعنى اشاهد عامية . . الى مثيلات لها ، مثل استعماله الرباعي من شغل ص ١٠٥ . والرباعي من شفى ص ١٣٢ بمعنى الثلاثي وهو يؤدي العكس .

والقصة بعد ذلك ورغم ذلك اثر قيم من ناحيتيهـا الادبية والفنية ، ففيها ترى اصطراعاً حياً وحركة مواجة .

عبدالله العلايلي

ابو حنيفة

للاستاذ عبد الحليم الجندي — ٢٢٢ صفحة — دار سعد مصر — القاهرة

لا يسع المنصف الا ان يقرّ ان النهضة الثقافية الحالية تبعث على الاعجاب وتغصب الثناء غصباً . ومن خير الكتب التي اتيح لي ان اقرأها اخيراً كتاب « ابو حنيفة بطـل الحرية والتسامح في الاسلام » الذي اصدره الاستاذ عبد الحليم الجندي المحامي باقسام قضايا الحكومة المصرية فهو دراسة عالم ثبت ، انفق في جمع مواده وترتيبها وتبويبها وتحريرها وقتاً طويلا ، وآلى على نفسه الا يكون مؤلفه غثاً رخيصاً سطحياً ، بل اراد ان يجيء كتابه سفراً جليلا يتناسب مع شخصية ابي حنيفة ومقامه وفقهه وشرعه .

والحق ان المصنَّف الذي دبجه الاستاذ الجندي خليق بالثناء . فقد تحرى فيه امانة المؤرخ الفطن ورصانة الكاتب الاديب وجمال الراوية اللبيب ، ووفق في الاماطة عن أبي حنيفة وفلسفته المسماحة ، وفي تبيان ما سما من خُلُقه وأدبه وسجاياه ونواياه ، وأطنب في سرد ما طبع عليه المشرّع الاسلامي الكبير من كرم لا يبغي منه مدحاً او شكوراً ، وعطف سابغ على المقترب والقريب ، وطيب قلب ، وصفاء نفس ، وطول أناة ، ورحابة صدر ، ونفاذ بصيرة ، وتسام عن الدنيويات الفانيات ، وترفّع عن رد الاهانة بمثلها .

ذلكم الفقيه الذي قصده بنو يومه يطلبون مشورته وفتواه فلم يرد أحداً مخذولاً ، وذلك القاضي الذي ما احتكم اليه في أمر الا نصر الحق وأزهق الباطل ، وهذا الامام الذي تصدر عصره ، وفاق بني قومه ، وهذا المحدّث اللبق الذي امه القوم افواجاً من كل حدب وصوب فما افلحوا في اعثاره او تضليلة ، وهذا الرشيد الذي تفجرت من فيه ينابيع الحكمة والحنكة فروى بها ظمأ الظامئين وأشبع سغب الجائعين . . . هذا العلامة المبرز الثقة ، جدير ولاريب بأن يقدم الى شباب القرن العشرين وأحفاد العرب الاماجد الذين يتلفتون يمنة ويسرة باحثين عن الرجل الحر الشجاع ، وعن المناضل عن الحق والمنافح للعدل فلا يجدون مثلا اروع من ابي حنيفة .

وقد قسّم المؤلف كتابه الى احدعشر باباً اتبعها بفهرست المراجع ، واخر للاعلام ، وتحدث في هذه الفصول عن ابي حنيفة الرجل والتاجر والمفكر وإمام اهل الرأي . وساق فصلا عن تلاميذه ومحاوراته معهم ومجالسته لهم ، ثم تحدث عن الايام التي امضاهـا في العراق والكوفة وتناول مآثره في الفقه والقضاء وفي التاريخ ، وكان الجندي في كل هذا اديباً بارعاً طاوعته اللغة ولانت له قناتها وقبض على مغاليقها .

القاهرة   وديع فلسطين

جولة الأديب في شهر

مع الطاقة الذرية

لا تزال الطاقة الذرية المحور الذي تدور حوله المشاكل العالمية وعلاقات الدول الكبرى بعضها ببعض ، فكل تقدم تحرزه دولة في هذا الميدان يترتب عليه تطور في لهجتها نحو القوة والشدة والاعتداد . . . وعدم المبالاة بالغير . . . عندما تخاطب الدول الاخرى او تفاوضها او تلوح لها بالمستقبل القريب والبعيد . . .

ولكن العلماء الاميركان والانكليز الذين اعلنوا انه ليس من الممكن ان تبقى الطاقة الذرية سراً مجهولا مدى طويلا ، وانه لا بد لعلماء الدول « الاخرى » ان يصلوا عاجلا او آجلا . . الى معرفة هذا السر الخطير . . نقول ان هؤلاء العلماء في اعلانهم هذا الامر دفعوا رؤساء الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا الى الاجتماع في واشنطن لبحث قضية الطاقة الذرية وكانت نتيجة المباحثات في هذا الاجتماع ان أصدر الرئيس ترومان والمستر اتلي والمستر كينغ في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٥ بياناً مشتركاً ، هذا هو :

بيان الرؤساء الثلاثة

(١) – نعترف بان تطبيق الاكتشافات العلمية الاخيرة على اساليب الحرب قد وضعت تحت تصرف الجنس البشري وسيلة للتدمير لم تعرف قبلا ولا يمكن مقاومتها بتدبير دفاعي عسكري واف ، والتي لا يمكن لامة واحدة من احتكارها .

(٢) – نرغب في تأكيد ان مسؤولية ابتكار الوسائل لضمان ان الاكتشافات الجديدة ستستخدم لخير الجنس البشري بدلا من استخدامها وسيلة للتدمير لا تقع فقط على عاتق امنا بل على عاتق جميع العالم المتمدن . ان التقدم الذي قمنا به في ترقية واستخدام الطاقة الذرية يتطلب ان يكون عامل المبادرة في هذه المسألة في ايدينا . وطبقاً لذلك اجتمعنا للنظر في امكانية عمل دولي :

ا) يمنع استخدام الطاقة الذرية لاغراض تدميرية

ب) ينشط استخدام الاكتشافات الحديثة والمستقبلة في ميدان المعرفة العلمية ، وخاصة في استخدام الطاقة الذرية ، لغايات سلمية وانسانية .

(٣) – نعلم ان الحماية التامة الوحيدة للعالم المتمدن من الاستخدام المدمر للمعرفة العلمية تنحصر في منع الحرب . ولا يستطيع اي نظام من الصيانة يمكن ايجاده من ان يقدم من تلقاء نفسه ضماناً فعالا ضد انتاج الاسلحة الذرية من قبل امة مرطنة النفس على الاعتداء . كما انه لا يمكننا تجاهل امكانية ترقية اسلحة اخرى او اساليب حربية جديدة قد تكون خطراً عظيما على المدنية كخطر الاستخدام العسكري للطاقة الذرية .

(٤) – بصفة كوننا ممثلي البلدان الثلاثة التي تملك المعرفة الضرورية لاستخدام الطاقة الذرية نصرح في البداءة برغبتنا ، كمساعدة اولى ، في تبادل المعلومات العلمية الاساسية والعلماء ، لاغراض سلمية مع اية امة تقوم بهذه المبادلة التامة .

(٥) – نعتقد بوجوب اتاحة ثمار البحث العلمي لجميع الامم ، وان حرية الاستقصاء وحرية تبادل الافكار ضرورية لتقدم العلم . وباتباع هذه السياسة فقد اتيحت للعالم المعلومات العلمية الاساسية الضرورية لترقية الطاقة الذرية لاغراض سلمية . وغايتنا ان تعالج كذلك جميع المعلومات المستجدة من هذا القبيل التي قد تصبح متاحة من وقت الى اخر . اننا نأمل ان تتبع الامم الاخرى سياسة مماثلة فتخلق بذلك جواً من الثقة المتبادلة يزدهر فيه الاتفاق والتعاون السياسيين .

(٦) – بحثنا مسألة انشاء معلومات متصلة تتعلق بتطبيق الطاقة الذرية تطبيقاً عملياً صناعياً . ويتوقف الاستثمار العسكري للطاقة الذرية الى حد كبير على الاسلوب ذاته والاجراءات اللازمة لاستخدامها في الصناعة . ولا نعتقد ان نشر المعلومات الخاصة بتطبيق الطاقة الذرية تطبيقاً عملياً ، قبل امكان ايجاد ضمانات فعالة

ومتبادلة وملزمة تكون مقبولة من جميع الامم ، يساعد على ايجاد حل انشائي لمشكلة القنبلة الذرية . بل على النقيض من ذلك نعتقد ان ذلك قد يكون له تأثير عكسي . على اننا مستعدون للمساهمة على اساس متبادل مع الامم المتحدة الاخرى في معلومات مفصلة تتعلق بتطبيق الطاقة الذرية تطبيقاً عملياً في الصناعة حالما توجد ضمانات ملزمة فعالة ضد استخدامها لاغراض تدميرية

(٧) — نرغب في الوصول الى وسائل فعالة جداً لازالة استخدام الطاقة الذرية لاغراض تدميرية وترقية استخدامها على نطاق واسع في الاغراض الصناعية والانسانية ونرى انشاء لجنة في اقرب وقت مستطاع تحت رعاية منظمة الامم المتحدة لاعداد توصيات لعرضها على المنظمة . ويجب ان يطلب من اللجنة ان تباشر عملها بأقصى سرعة وان تخول عرض توصيات من وقت الى آخر تتعلق بأوجه متفرقة من عملها .

على اللجنة خصوصاً ان تقدم اقتراحات معينة :

ا) لان ينشر بين جميع الامم تبادل المعلومات الاساسية العلمية لاغراض سليمة .

ب) للسيطرة على الطاقة الذرية الى المدى الضروري لضمان استخدامها فقط لاغراض سليمة .

ج) لالغاء الاسلحة الذرية وجميع الاسلحة الكبيرة الاخرى ذات التدمير الشامل .

د) لضمانات فعالة بواسطة التفتيش ووسائل اخرى لحماية الدول العاملة بذلك من اخطار نقض هذه التدابير والتحايل عليها من قبل دول اخرى .

(٨) — يجب ان يسير عمل اللجنة في مراحل منفصلة يؤدي نجاح كل منها الى زيادة ثقة العالم الضرورية قبل ان تبدأ المرحلة الثانية . وينتظر على الخصوص ان تخصص اللجنة اهتمامها اولا الى تبادل العلماء والمعلومات العلمية على نطاق واسع وفي المرحلة الثانية الى ترقية المعرفة الكاملة بشأن الموارد الطبيعية للمواد الخام .

(٩) — بالنظر الى الحقائق الرهيبة الناجمة عن تطبيق العلم على الدمار ستدرك كل امة اكثر من السابق الحاجة الماسة للمحافظة على حكم القانون بين الامم ولازالة آفة الحرب من وجه الارض . ويمكن فقط الوصول الى ذلك بتأييد منظمة الامم المتحدة تأييداً قلبياً وتدعيم سلطتها ونشرها ، وهذا من شأنه ان يخلق ثقة متبادلة تكون بواسطتها جميع الشعوب حرة في تكريس جهودها للاعمال السلمية . اننا عازمون على العمل دون تحفظ للوصول الى هذه الاهداف .

والابحاث الذرية تسير سيراً حثيثاً نحو كشف آفاق جديدة ، فقد اماط العلماء اخيراً في مختبر ابحاث شركة «جنرال اليكتريك» عن اعمال آلة ضخمة للكشف عن اسرار الطبيعة الاساسية التي تنتج اشعة ايكس التي تبلغ قوتها مئة مليون فوات وتفتت الذرات في جدول من الالكترونات من ذات القوة ويبلغ وزن هذه الآلة ١٣٠ طنا وتعرف باسم بيتادرون . ويمكن للعلم بواسطتها ان يدخل ميداناً جديداً من البحث الذري قد يعجل في امكان استخدام الطاقة الذرية في اغراض غير الاغراض التدميرية . فان زهاء ثلاثين مهندساً من اعلام المهندسين الذين تتألف منهم الجمعية الاميركية للمهندسين الميكانيكيين الذين يعملون « طرابين الغاز » يقولون ان هنالك احتمالا قريباً بامكان الاستفادة من الطاقة الذرية في ميدان نشاطهم .

وقد صرح المستر توم سوير رئيس تلك الجمعية بان الطاقة الذرية هي قوة اضافية لمدد الوقود العالمي . هذا والمستر سوير على اتصال بشركة القاطرات الاميركية وهو من الثقات الذين يعتمد عليهم في صناعة محركات الديزل و « طرابين الغاز » ويرى المستر سوير اننا نستطيع الوصول الى انتاج وحدة للقوة الذرية تزيد عن ٣٠٠ الف كيلوات تستخدم بواسطتها طرابين الغاز والبخار جميعاً في المؤسسة الواحدة وسيستخدم الفحم والبترول مع القوة الذرية في سبيل بلوغ اعظم طاقات القوة المحركة . ولكنه اضاف في حذر الى ما تقدم ان القوة الذرية لن تحل اكيداً محل الوقود الحالي وانما ستؤيده وتساعده .

ويشارك بعض الاعضاء الاخرين المستر سوير رأيه في ان قدراً هائلاً من الحرارة المنطلقة من الذرات المتفجرة يستطيع ان يحرك « طرابين الغاز » .

ولكن محرر المقال الافتتاحي لنشرة الجمعية الاميركية لتقدم العلوم قد ابدى تشاؤمه الصريح . فهو يسخر من الفكرة القائلة بامكان السفر الى القمر اعتماداً على قليل من اقراص الفيتامين التي يستطيع المرء ان يضمها في احد جيبيه وعلى حبات قليلة اخرى من الذرات في جيبه الاخر . ولكن المحرر يرى ان هنالك احتمالات اكثر في ان يتمكن المرء من خفض الحرارة في الكرة الارضية او السيطرة على المد والجزر وتصريف الرياح والاشعة الشمسية

ويتساءل الخبراء في هذه الآونة ما اذا كان استخدام هذه الطاقة عملياً وممكناً من الناحية الاقتصادية ذلك ان المعروف ان

حكومة الولايات المتحدة قد انفقت ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار على صنع القنبلة الذرية ولكن من الواضح كذلك ان تنفيذ مشروع الان لاستخدام الطاقة الذرية في المضمار الصناعي لا يمكن بحال ما ان يتكلف ذلك المبلغ الباهظ لان جزءا كبيرا منه قد انفق على تجارب لن نحتاج الى تكرارها مرة اخرى

ويجيب بعضهم على هذا التساؤل بانهم مع اعترافهم ان نفقات هذه الجهود وامثالها ستكون عظيمة باهظة ولكنهم لا يشكون بانها ستكون ، على كل حال أقل من نفقات عزل مقادير كبيرة من مادة الاورانيوم — ٢٣٥ او تحويل مادة الاورانيوم — ٢٣٨ الى مادة البلوتونيوم ، ولا ينتظر ان تكون هنالك طريقة ما للحيلولة دون انفجار الاورانيوم — ٢٣٥

اول سيارة تدار بالطاقة الذرية

وبينا العلماء والمهندسون منصرفون الى كشف آفاق جديدة من عالم الطاقة الذرية اذ بجريدة « دايلي اسكتش » اللندنية تنشر مقالاً تعلن فيه انه اخترعت سيارة تدار بالقوة الذرية وقد قادها اخيراً المخترع واثنان من اعضاء مجلس النواب البريطاني في شوارع مدينة لندن .

وقال المستر تايلور احد العضوين المذكورين ان « الجهاز الذري » كما يسميه تضمه علبة صغيرة مستديرة يبلغ قطرها ثلاث بوصات وهي موجودة داخل السيارة لا في مقدمتها .

ويزعم المخترع انه يمكن استعمال جهازه الذري في تسيير اية مركبة وفي تسيير الدبابات والسفن الحربية والطائرات . ويجوز ايضاً ان يستعمل هذا الجهاز لتوليد الكهرباء باسعار تافهة .

وقال المستر تايلور انه ليس خبيراً في مسائل الذرة الا انه يعرف المخترع الذي سجل اختراعه ويعرف ايضاً انه قاد سيارته الاف الاميال بدون استعمال البنزين .

وقال ايضاً ان قيادة هذه السيارة تشبه قيادة اية سيارة اخرى ولم يتكلم المستر تايلور عن المخترع واكتفى بذكر اسمه وهو ج . ولسون من سكان ضواحي لندن .

ويظن المراسل ان المستر ولسون من اصحاب الاراضي وانه عثر في اراضيه على مادة الاورانيوم التي تستعمل في توليد القوة الذرية .
وسيقدم المستر ولسن تصميمات اختراعه الى وزارة الوقود والقوى الكهربائية ليدرسها الخبراء .

الى اين المصير ؟

وسواء أكان هذا الخبر صحيحاً ام كان سابقاً لاوانه ، فما لا شك فيه ان القلق بدأ يساور اقطاب الدول المختلفة على مصير الانسانية ، فوزير خارجية الولايات المتحدة المستر بيرنز يؤكد ان العالم المتمدن لا يستطيع البقاء بعد حرب ذرية ، ويتابع كلامه قائلاً : « هذا هو التحدي الموجه الى جيلنا ، ولمواجهته ، علينا ان نكون جريئين في تفكيرنا . وفي الوقت ذاته علينا ان لا نتخيل انه يمكن بين ليلة وضحاها قيام حكومة عالمية ذات حكمة وقوة كافية لحمايتنا جميعاً وذات تسامح وروح ديموقراطية كافية لكسب ولائنا .

« اذا اردنا المحافظة على استمرار الحياة المتمدنة فيجب ان نعمل بالمواد التي لدينا فنحسن ونضيف الى المؤسسات الموجودة الى ان تصبح قادرة على مواجهة تجربة عصرنا الكالحة »

وقد وصف المستر بيرنز بيان ترومان — اتلي — كينغ عن القنبلة الذرية انه « الخطوة الاولى في مجهود لانقاذ العالم من اضطراب يائس » . ثم شرح الشروط الواردة فيه لنشر المعلومات الذرية .

واستطرد الوزير قائلاً : « اريد ان اؤكد اعتقادنا بان ايجاد وترقية ضمانات لحمايتنا جميعاً من دمار لا يوصف لا يقعان فقط على عاتق الولايات المتحدة او بريطانيا او كندا بل على عاتق جميع الحكومات اذ بدون تعاون جميع امم العالم لن تكون هنالك حماية دائمة وفعالة ضد القنبلة الذرية . ولن تكون هنالك حماية ضد حرب الميكروبات او ضد اساليب اخرى من التدمير البشري اكثر فظاعة .

« ولكن القضاء على اساليب الحرب الذرية او حرب الميكروبات غير كاف بل يجب القضاء على الحرب . والى ذلك الهدف الانساني العظيم يجب ان نكرس قلوبنا وقوتنا . ولمساعدتنا على التحرك نحو ذلك الهدف علينا ان نحترس ليس فقط ضد التهديدات العسكرية للامن العالمي بل ايضاً ضد التهديدات الاقتصادية . ولا يمكن ان يجتمع معاً طويلاً السلم السياسي والحرب الاقتصادية واذا كنا نريد السلم في العالم فيجب ان نتعلم ان نعيش معاً ونعمل معاً . ويجب ان نتمكن من الاتجار معاً » .



٢٩ تشرين اول ١٩٤٥ – ان مواقع البريطانيين في سورابايا – وهي الميناء الكبير في جاوه – قد اصبحت الآن في حالة حصار .

بدأت جلسات مجلس جامعة الدول العربية بالقاهرة .

٣١ – قتل البريغادير مالابي قائد فرقة المشاة الهندية في سورابايا فيما كان يتفاوض مع زعماء المتطرفين الاندونسيين في شروط وقف القتال .

١ تشرين الثاني – الغي مجلس تموين الشرق الاوسط الذي أنشىء في خلال الحرب ، بعد ان انتهت الظروف التي دعت الى انشائه .

٢ – اضربت جميع البلاد العربية في هذا اليوم – يوم وعد بلفور – احتجاجاً عليه وانتصاراً لفلسطين فى قضيتها ضد الصهيونية . وقد وقع اصطدام بين المتظاهرين بالقاهرة والاسكندرية وبين رجال الشرطة نتج عنه بعض القتلى والجرحى .

٥ – لا يزال القتال مستمراً في باتافيا بين الاندونسيين والبريطانيين .

انتهى في باريس مؤتمر العمال الدولي من اعماله .

٦ – احتفلت روسيا بالذكرى الثامنة والعشرين للثورة الشيوعية ، وقد اقيم الاحتفال الرسمي المعتاد في المسرح الكبير . ولم يتكلم ستالين لاول مرة في مثل هذه الذكرى . وقد تكلم مكانه مولوتوف .

٧ – علم اليوم ان حوادث وقعت ضد اليهود في طرابلس الغرب يوم وعد بلفور ووقع عشرات القتلى والجرحى .

٨ – عين اللفتنانت جنرال السر الن كننغهام مندوباً سامياً لفلسطين خلفاً للفيلد مارشال اللورد غورت .

٩ – ناشد الزعيم الوطني الاندونسي الدكتور سوكارنو الرئيس ترومان والمستر اتلي ان يتدخلا للحيلولة دون وقوع حرب في جاوه وجاء من سورابايا ان الزعيم يخشى من تجدد القتال في جاوه .

توفي المارشال الالماني فون ماكنزن الذي قاد الجيوش الالمانية في الجبهة الشرقية ثم في البلقان في الحرب العالمية الاولى .

غادر المستر اتلي رئيس الوزارة البريطانية لندن قاصداً الى الولايات المتحدة بالطائرة .

١٠ – عقد مجلس جامعة الدول العربية جلسة خاصة بفلسطين .

بدأت المحادثات البريطانية الاميركية الكندية بشأن القنبلة الذرية في البيت الابيض .

١٢ – افتتح جلالة الملك فاروق الدورة الجديدة للبرلمان المصري .

١٣ – القى المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا بيانه المنتظر عن فلسطين في مجلس العموم فتحدث عن اضطهاد النازي لليهود في المانيا والمشكلة الناشئة عن ذلك ، ثم اعلن ان حكومة جلالته قررت دعوة حكومة الولايات المتحدة للتعاون معها في تعيين هيئة مشتركة من الانكليز والاميركان للتدقيق في موضوع يهود اوروبا والنظر مرة اخرى في مشكلة فلسطين على ضوء ذلك التدقيق .

سافر الامير سيف الاسلام عبدالله نجل الامام يحيى امام اليمن الى فلسطين وشرقي الاردن .

١٤ – عقدت الجمعية الوطنية في باريس جلستها المخصصة لانتخاب رئيس الحكومة الفرنسية فنال الجنرال ديغول ٥٥٥ صوتاً وامتنع نائب واحد عن التصويت .

١٥ – لم تسفر الاستشارات التي قام بها الجنرال ديغول عن نتيجة راهنة ، ذلك لان الحزب الشيوعي تقدم بطلب وزارة من ثلاث للداخلية او الخارجية او الحربية .

١٦ – اضرب اليهود في فلسطين احتجاجاً على بيان بيفن عن فلسطين ، ووقعت عدة اصطدامات بين الصهيونيين والجند البريطاني .

وصل الى القدس جميل مردم بك رئيس جامعة الدول العربية لمفاوضة الاحزاب الفلسطينية وجمع كلمتها .

١٧ – وصل الامير سيف الاسلام عبدالله امير اليمن الى بغداد .

١٩ – قامت ثورة في اذربيجان ، وهي القسم الشمالي من ايران ، فقد احتلت جماعات من الحزب الديموقراطي الاذربيجاني عدة مدن في اذربيجان .

٢٠ – اسفرت مساعي جميل مردم بك في فلسطين عن تأليف اللجنة العربية العليا من جميع احزاب فلسطين .

بدأ نورمبرغ محاكمة كبار النازيين فاحضر الى قاعة المحكمة غورنغ وهس ورايدر وريبنتروب وكايتل وفون بابن وغيرهم .

اوقفت السلطات العسكرية الروسية في قزوين – ايران ، الفرقتين اللتين ارسلتها حكومة طهران لاخماد ثورة اذربيجان وامرتها بالعودة .

عين الرئيس ترومان الجنرال ايزنهاور رئيساً لاركان الحرب خلفاً للجنرال جورج مارشال .

٢١ – وصل المندوب البريطاني الجديد الى فلسطين .

ألف الجنرال ديغول حكومته الجديدة ، واحتفظ لنفسه بوزارة الدفاع ، وتضم الوزارة خمسة من الوزراء الشيوعيين .

ألف سوفوليس الحكومة اليونانية الجديدة .

٢٢ – استقال المونسنيور دماسكينوس من منصب الوصاية على العرش اليوناني لانه وجد في خطاب للملك جورج الثاني المقيم في لندن ما يشير الى ان الملك سحب ثقته من الوصاية .

٢٤ – استقال السنيور باري رئيس الوزارة الايطالية ، وقامت على الاثر مظاهرات كثيرة في شوارع روما وميلانو تأييداً له .

– انتخب الاستاذ فارس بك الخوري رئيساً لمجلس النواب السوري لدورته الجديدة .

٢٥ – نشرت حكومة ايران المذكرة التي سلمتها الى سفير الاتحاد السوفياتي في طهران ، وتضمن هذه المذكرة احتجاجاً رسمياً على موقف القوات السوفياتية التي منعت الجنود النظاميين الايرانيين من الذهاب الى تبريز لاعادة النظام .

– هاجم فريق من الصهيونيين مطار اللد بفلسطين ونهبوا منه كمية كبيرة من الاسلحة والرشاشات .

– قامت في بومباي وكلكوتا مظاهرات اشترك فيها الطلاب ، وقد تدخل الجيش واطلق عليهم الرصاص ووقع عدة جرحى .